أعلام الإسلام

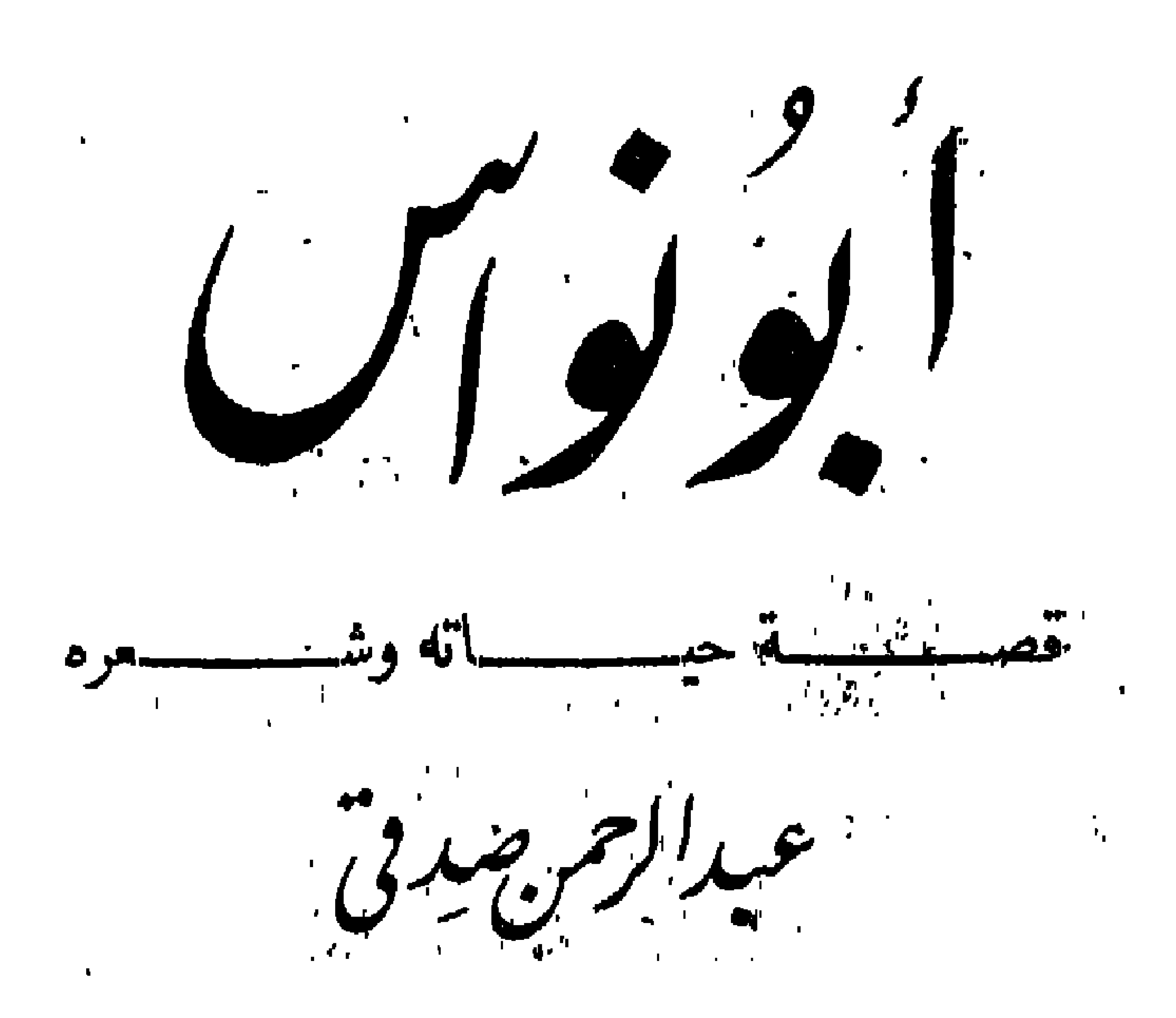
عبد الرحمن صدقي

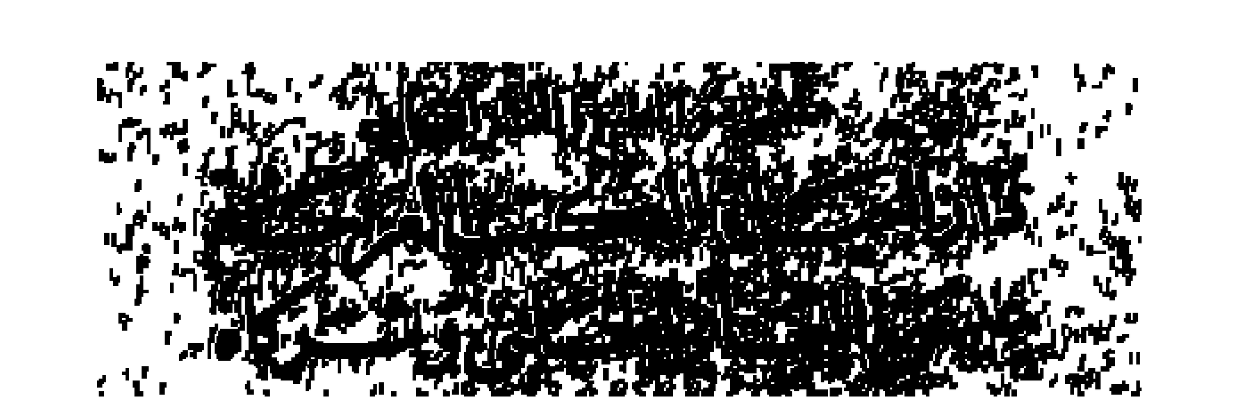
أبو نواس

دائرة المعارف الإسلامية

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

أعلام الإسلام





مُقدّمة

نقتصر فى هذه المقدمة على كلمتين : عامة ، وخاصة

فأما الأولى ، فنقصد بها الى دفع ما وقع فى بعض الأوهام من أن المعنى المراد بمجموعة « أعلام الإسلام » أنها وقف على الترجمة للهداة المصلحين والفقهاء المجتهدين والأبطال المحاربين عن حوزة الدين . فالمجموعة فيما أرادته اللجنة القائمة بنشرها هى فى حقيقة الواقع أوسع من ذلك مجالاً وأرحب أفقاً . فهى تشتمل على هؤلاء وعلى غير هؤلاء ، ممن تفيد الترجمة لحياتهم فى تمثيل وجه من وجوه الحياة الاجتماعية فى العالم الإسلامى ، فى بداوته وحضارته ، وفى جده ولهوه ، وفى إيمانه وفلسفته ، حتى يخلص من ذلك كله صورة كاملة صادقة لما كانت عليه تلك العهود ، وما دخل عليها من آثار ، وما اختلف عليها من أطوار ، فيتمثلها المطالع العصرى على جليتها وحقيقتها ويتعرف موجبات تقدمها ورقيها ودواعى تدهورها وسقوطها

وأما الأخرى فنريد بها بيان ما توخيناه فى وضع هذا الكتاب ورسم معالمه وسياقة أجزائه . فقد توخينا فى ذلك منهج التراجم الحديثة من إظهار

المترجم له شخصيةً حيـةً موصول الرحم بآبائه ، معقود الأسباب بعصره ، يُستبان هنا وهناك فى سماته ومتصرفاته عِرْقُ الوراثة وأثر البيئة . ولقد أفرغنا وسعنا وبذلنا غاية جهدنا فى الاستقراء والاستنتاج من شتات أخباره حيناً ، ومن ديوان أشعاره فى معظم الأحيان ، حتى تهيأ لنا فى ترجمتـه ما تهيأ من تأسيس البنيان وإقامة الأركان ، وملء الفجوات بما يتفق مع منطق الحياة دون أن يخلو قولٌ من سندٍ له ، أو ـ على الأقل ـ من مصداقٍ على جواز صحته ، من سير الحوادث فى التاريخ العـام ، وخصائص الشعوب فى شتى البلدان ، وطبائع الإنسان من حيث هو إنسان . فجاءت الترجمة لأبى نواس ـ كما يراها القارئ ـ مطردة السياق متصلة الحلقات ، تنتظم حياتَه من نشأته الى وفاته مرحلةً بعد مرحلة ، مع قلة المراجع فى هـــذا الشأن وانصراف الأقدمين الذين ترجموا له عن هـذا السنن . كذلك كان همنا الأكبر ـ مع تصوير دنياه وحياته الخارجية ـ تجليةَ حياته الوجدانية وتطوراته النفسية ، ليتم التركيبُ وتحصل على قـدر توفيقنا المعجزة ، فيعود أبو نواس بعد نيف ومائة وألف سنةٍ الى عالم الحياة بَشَرًا سويًّا ، كما بقى فى عالم الأدب شاعراً متدارَس الشعر متعارَفَ القدر عبقريا .

غرام جندى

كان كل شىء يؤذن بسقوط البيت المالك الأموى وأفول نجمه ، بعد أن بلغت رقعة الملك فى عهد بنى مروان مثل الذى بلغته فى أوج العظمة امبراطورية الرومان ، إذ كانت دولتهم تنبسط من الهند وحدود الصين شرقاً الى المغرب الأقصى والأندلس غرباً . ولقد كانت العاصفة تهب من كل أوب وصوب . فثمة العلويون شيعة آل البيت الذين لا يرون فى خلفاء بنى أمية إلا أنهم غاصبون ، وثمة الشعوب المغلوبة التى يعاملها العرب معاملة السيد للمسود تترقب الساعة لخلع الطاعة ، وهنا قبائل العرب و بطونهم تجيش صدورهم على عصبية قريش واستبدادها من دونهم بالحكم ومناصب الدولة ، ثم الناقمون على السلطان من أفراد الناس وآحادهم لأسباب تخصهم ولا تعنى غيرهم ، وفى غمار هذا جميعه المهيجون دعاة الفتن الذين اتخذوا صناعتهم إيقاد جمرها وتأريث نارها .

وفى هذه الفترة كان على عرش الخلافة القائد العالى الهمة مروان الثانى

وهو وقتئذ شيخٌ قد ناهز الستين . ولم يطل قراره فى دَسْت الملك حتى انتقض أهلُ حمص وفلسطين ، فأبلى القائدُ المحنّك فى حربهم وأوقع بهم وأخمد ثائرتهم ، وخرج عليه الخوارج من الغلاة المتعصبين ، واجتاحوا اليمن والحجاز والعراق ، فدارت بينه وبينهم وقائع دامية ، وانتهى بأن ظهر عليهم وأجلى من كانوا منهم باليمن والحجاز إلى حضرموت ومَن كانوا بالعراق الى ما وراء دجــلة .

وطلب مروان بن محمد بعضَ الراحة والاستجمام فى قصره المحبّب إليه فى « حرّان » . ولـكنه كان مع ذلك غير مطمئن الخاطر من ناحيــة فارس وخراسان ، فأنفذ الجندَ الى ما وراء دجلة للشحنة والرباط .

* * *

كان من الأطراف التى أوفد إليها الخليفةُ الأموى البُعُوثَ لعظم شأنها من الوجهة الحربية ، كورةُ الأهواز بين البصرة وفارس . وكان من رجالهــا جندىٌّ من غمــار الجند شاءت المقادير أن يحفظَ التاريخُ اسمَه طوال ما غبر من سوالف السنين ، وهو لا محالة حافظُه فى مستأنف الأيام إلى أبد الآبدين ذلك الرجل هو « هانئ » . وكل فضله أن المقادير شاءت أن يكون أبًا لابنه « الحسن بن هانئ » أحد الأعلام الخالدين من شعراء العربية المجددين .

قدم « هانئ » مع سائر أجناد فرقته إلى الأهواز ، وأقاموا معسكرهم فى ظاهر المدينة . وكانت المدينة تُعرف بسوق الأهواز لاجتماع التجارة فيها من

النواحى المجاورة ولما يصدر عنها من السكر الجيّد المنسوب إليها . ولم يكن بين الجند مَن ارتاحت نفسه إلى هذه النُّقْلة للذى وجدوه من حرّها ووخامة هوائها . وقد كان لما حول المدينة من مناقع المياه الغليظة والسباخ هبوةٌ داخنة متصاعدة ، يُقابلها الجبلُ الصخرىّ الناصبُ المطلُّ عليها ، فتنعقد فى الجو وتزيدُه حرًّا ووخامة . فإذا أظلّ الليلُ واستروحوا بعضَ البرد فى جنحه ، لم تطمئن جنوبهم الى المضجع من لسْب البعوض . فلا جرم يقبلون بعضهم على بعض يذمون الأهواز و يبالغون .

ولم تلبث الحامية أن تفشّت فيها الحمّى . ولم يسلم منها « هانئ » فقد أطبقت عليه لا تفارقه ليلاً ولا نهاراً . وكانت لا تنزع عنه حتى تعاوده فأشرف على التلف . وقام من علته فى آخر الأمر موصب البدن منهوك القوى

وكانت سوق الأهواز تخترقها مياهٌ مختلفة . وكان هذا كلّ ما يستحبه « هانئ » فيها ، لِما تذكره به المياهُ الجارية من مناظر دمشق الشام ــ موطنه المحبب ، وحاضرة الملك وقتئذ وقصبة الإسلام . وهو أشد ما يكون انجذاباً إلى ذلك الوادى العظيم الذى يشقّ الأهْواز ، لا يمـلّ النظرَ إلى مائه الأحمر الزاخر من المُدُود ، ولا يضجر من جلبة النواعير والأرحاء القائمة عليه . وكان لا يقنع منه بالضفة القريبة ، بل يعبر القنطرة العظيمة عليه ، مستغرقاً فى تأمله ، يغوص بنظرته فى طوامى غَمْرته حتى يبلغ العُدْوة[1] الأخرى .

فى عصر يومٍ شديد الحر خرج « هانئ » إلى النهر، وأطال السير محاذياً

---

(١) الجانب والضفة

له التماساً للنسيم وارتياداً للخضرة . فكانت تتوالى على ناظره من أحد جانبيه خمائلُ أشجارٍ وشجيراتٍ موقرات بالفاكهة والثمار ، ثم مزارعُ الأرز مغمورة بالماء ، حتى إذا أبعد فى المسير انبسطت على مَدِّ البصر مغارسُ قصب السكر قائمةَ الشطاط كأنها الجيوش الكثيفة اعتقلت الرماحَ الخطِّيّة ، فإذا التفتَ إلى الناحية الأخرى ، ناحية النهر الداكن الحمرة ، امتلأتْ نفسُه روعةً وجلالاً ، من تدفّق عبابه وسرعة انصبابه ، وهو يجرى فى حدود مَسِيله كالخيل الكُمْت فى مجاريها ، وموجُهُ يضطرب ويغلى ويموج بعضه فى بعض ، ويعلو أثباجَه[1] من شدة فوره وجيشانه مثلُ اللُّغام[2] من قِطَع الزبد وطرائق الرغوة ، وقد عجّ عجيجُه وارتفع هديره .

ومضى « هانئ » مأخوذاً يطوى الطريق ، وهو فى شَغَلٍ عن المسافة التى قطعها ، والتى يلزمه فى العَوْد أن يطوى أدراجَها . حتى إذا انقطعت المزارع وتبدّل لعينيه المنظر ، ثاب إلى نفسه فرأى الشمس جانحةً للمغيب ، وطالعته غيرَ بعيد منه قريةٌ صغيرة على سفح ربوة . وأحسّ وقتئذ فقط بما أصابه من التعب ، فمال إلى صخرة يستريح .

وإنه ليلتفتُ حوله إلى ألوان الأصيل على الموج وماترسمه ظلال الصخور ، إذا بعينه تأخذ شخصَ امرأةٍ على بعض الحجارة المتقدمة فى الماء ، وهى مُكبّة على شىء تغسله فى النهر ، وقد شمّرت عن ساقيها وحسرت عن ذراعيها ، وهما يضيئان من نصاعة اللون والبياض . ولم تكن بالكثيرة اللحم ولكنها كانت

---

(١) أواسطه وأعاليه (٢) اللغام : زبد أفواه الخيل

ممكورةً مبتلّة ، بضّة الذراعين تامة الساقين ، وكان شعرها المعقوص قد استرسل من الحركة . ولما أن شعرت المرأةُ بالقادم أزاحت متهدّل الشعر عن جانبيْ وجهها ، ونظرت إلى ناحيته . وكان حَسْبها هذه النظرة لتعرف من هيئته وبزّته أنه لابد من أجناد الحامية العربية . ولم يكن هانئ يشارك الجند في خشونة الطباع والسرعة إلى التقحّم والاجتراء ، فلم تجفل المرأة منه وأخذتْ فيما كانت فيه ، وهو يلاحظها ويديم النظر إليها معجباً ببياضها وملاحة حركتها . ولعل ذلك ازدهاها ، فقد جعلت تخالسه النظرَ فى الحين بعد الحين ولا تمنعه أن تلتقى عيناهما . وقد وقع —ولاشك— فى نفسها قوامُه وشاربُه المفتول ووجهُه الأسمر الذهبي تحت عمامته العربية . فلما فرغت من شأنها ، قامت تحمل إجّانتها[1] ولم تحفل من العجلة أن تزمّ الجيبَ[2] على صدرها . وقد توخّتْ أن يكون طريقها من أمامه . وأقبلتْ وهو ينظر إليها . فلما دنت ابتسمت له وابتسم لها ، وتجرّأ فسألها عن هذا الذى معها فقالت « صوفٌ أغسله » . وعلم منها فى بعض ما علم أنها تنسج الجوارب وتصنع الأخراج . ولما كانت شمس الأصيل قد رنّقتْ وكاد يختفى قرصها ، فقد انصرفت المرأة عنه مسرعةً دون أن تبوح باسمها . ومضت مُصعدةً فى سفح الربوة ، وهى تميس ناعمة لينةً ، وقد أبدى أعطافها ثوبُها المبلّل اللاصقُ بها ، وكان شعرها الوارد يضرب إلى حَقْوَيْها . فلم يملك هانئ نفسَه أن تبعها على خطوات منها حتى دخلت القرية وكانت الدروب على ضيقها تزحمها قطعانُ الغنم القافلة من

(١) الاجانة : إناء تغسل فيه الثياب (٢) الجيب من القميص أو الثوب : طوقه وماقور منه

مراعيها . ولـكنه لم يدع المرأة مع هذا تغيب عن عينه ، حتى دخلت بيتاً من تلك البيوت المتضعة المتلاصقة . وقبل أن يحتويها البيت ، التفتت إليه لفتة زادته لهفةً على لهفة .

ولم يبرح « هانئ » حتى تعرّفَ المـكان ، فعرف أنه بالقرب من الجبل المقطوع ، وأن اسم القرية « إســتانه أتار[١] » ومعناه باب النار ، وأن اسم فاتنته « جُلّبان » أى غصن الورد .

* * *

لم ينعم « هانئ » طويلا بقرب زوجته الفارسية الأهوازية . فقد انتزعه من بين ذراعيها ـ قبل أن ينصل خضابُ العرس من يديها ـ نفيرُ الحرب ، لدفع الفتنة المحذورة ، وقد ارتفعتْ بعد الخفاء أعـلامُها واندلع فى الأفق ضرامُها .

فى ليلة الخميس ، لخمسٍ بقين من رمضان من سنة ١٢٩ هجرية ، أُوقدت النيرانُ على قنن الجبال بموضع بخراسان ، وكانت العلامةَ المتفق عليها بين الثائرين على الأمويين إظهاراً للدعوة وإعـلاناً للثورة . فأقبلت العشراتُ

(١) ورد اسمها « أســتان ماتارد » ولعـله خطأ فى النسخ وتخليط بسيط من تحريف الحروف عن مواضعها وصحته « إستانه أتار » أى بإضافة الميم التى بأول الـكلمة الثانيـة إلى النون فى آخر الـكلمة الأولى فتكون هاء ، ثم جعل الدال التى فى آخر الـكلمة الثانية سكونا على الراء ، فيكون اسم القرية « إستانه أتار » ، وهى بعينها « باب أذر » التى وردت فى مراجع أخرى مجلا لميلاده ، لأن إستانه معناها باب ، ولفظ آتر ـ أو ـ أدر ـ أو ـ أذر بمعنى واحد أى النار

والمئات والألوف من الأشباح المتشحين بالسواد ، مجهزين بالعدّة والسلاح ، وانتشروا كقطع الظلام تظللهم الرايات السود . وكانت جيوش الثوّار معظمها من الخراسانيين ، وهم جندٌ لهم أبدانٌ وأجسام ، ومناكب وكواهل وهامات ، ولحىً وشوارب ، وأصواتٌ نخمة تخرج من أجوافٍ منكرة ـ وهم إلى ذلك ذوو عَدَدٍ كثير ، وجَلَدٍ ظاهر ، وقلوبٍ فارغةٍ لم تتقسّمها الأهواء ولم يتوزعها الدغَل . وانتظم الزحفُ ، واشتد الهجوم ، وغَلُظ أمرُهم واستوثق . فاكتسحوا خراسان كلها ، وأقبلوا كالسيل على ما وراءها .

وكان من حسن تنظيم الدعوة العباسية وإحكام تدبير الثورة وتسيير دفتها ، أن أُسْقط في يد عمال الأطراف من قِبَل الأمويين ودبّ الشقاق بينهم وفعلت الدسائس فعلها فيهم ، فاختلّ الأمر واستشرى الفساد وانخذلت الحاميات العربية في خراسان ، ثم في العراق . ثم التقى الجيشان : جيش مروان وقد جرّد من رجاله ـ ممن اختارهم من سائر جيشه من أهل الشام والجزيرة وغيرهم ـ مائةَ ألف فارسٍ على مائة ألف قارح ، وجيش المسوّدة الكثيف برماحهم كأنها النخل غِلَظاً ، وفي أوائلهم البنود كأنها قطع من الغمام سود يحملها الرجال على الجمال البُخْت وقد جُعلت أقتابُها من خشب الصفصاف والغرب . وكانت وقعة فاصلة عند نهر « الزاب » لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة في سنة ١٣٢ هجرية ، فكُتب النصر للثوار الخراسانيين فتمّت لهم الغلبة ، وزالت على يدهم دولة بني أمية وظهر بالخلافة بنو العباس .

وكان من أثر هذه الغلبة تسريحُ الحاميات العربية وتفرّقُ شملها ، ومنها حامية الأهواز . وكان الخليفة العباسى الظافر « أبو العباس السفاح » قد وجّه عمَّه اسماعيل عاملًا على كورها . وعاد « هانئ » الجندى القديم إلى زوجته فى قريتها بالقرب من الجبل المقطوع ، ولكنه عاد وهو موزَّع النفس بين الكمد والسرور . فقد كان يسرّه أن تنتهى الحرب ، ولكن لا على هذا الوجه من انقطاع مادةِ رزقه ، وسقوط شوكةِ قومه . واستقبلته « جُلُّبانُ » كما تستقبل المرأةُ المحبة زوجها ، وقد استطارها الفرحُ وماد بعطفيْها وغلب عليها . ولم يكن فرحها كله خالصاً له ، فقد كان بعضه لقومها الغالبين ، ولكنه مضمرٌ فى طوايا نفسها لا يبين . ولم يعدم الجندى القديم وسيلةً للكسب الشريف ، فاشتغل برَعْى الغنم وبالحياكة ، ومضت هى فى صنع الأخراج ونسج الجوارب. وتعاون الاثنان على العيش بالمجاهدة والسعى ، وألهاهما عن الفاقة ورقة الحال ما كان بينهما من استدامة الصبوة والغرام . وقد أثمر هذا الحب ثمرته فأولدها عدةَ أولادٍ (١) ، نعرف منهم فتاة يقال إنها كانت عند فرج القصّار وهو عبدٌ كان لأحمد بن عصمة الله الباخَرْزى ، ونعرف من الذكور اسماعيل ،

(١) قيل إن هانئاً لم يكن له ولد ولا خلف غير أبى نواس ، وقيل ان له أولاداً غيره . وقد رجح الرأى الأخير عندنا أنه قد جرى اسم احمد أبى معاذ على ألسن الرواة أكثر من مرة على أنه أخ لأبى نواس ، ثم زادنا ترجيحاً ما ورد فى تاريخ الأمم والملوك للطبرى فى قوله فى الجزء العاشر فى الصفحة ٢١٩ ما نصه (وذكر عن ابراهيم بن اسماعيل بن هانئ ابن أخى أبى نواس قال حدثنى أبى قال هجا عمك أبو نواس مضر فى قصيدته التى يقول فيها كذا فبلغ ذلك الرشيد الخ » .

ونعرف أكثر منه أحمد أبا معاذ وهو الذى يقال إنه كان يعمل مؤدباً لأولاد فرج الرُّخَّجِى الخبّاز[1] ، ثم نعرف الحسن ـ وكان مولده فى القرية نفسها المعروفة بباب النار سنة ١٤١[2] فى عهد ثانى الخلفاء العباسيين أبى جعفر المنصور ـ وهو الذى نبغ ذكره من الأسرة و به عُرفتْ ، حتى كان أبو معاذ مع عَطَله من مذاهب الأدب وقلة إحسانه لشىء منها يتعيّش بأنه أخوه ، وكان اسماعيل كثيرَ الرواية له وعنه روى ابنُه ابراهيم .

وهذا « الحسن بن هانئ » هو شاعرنا الذى عرفته الأجيال بعد ذلك باسمه المحبب « أبو نواس » ، واجتمع أكثر النقاد العرب على أنه أشعر الشعراء المحدثين .

---

(١) ورد فى بعض رسائل الجاحظ « فى صناعات القواد » ما نصه « وسألت فرجا الرخجى وكان خبازا . . . »

(٢) اختلف الرواة كعادتهم فى مولد أبى نواس ووفاته . فذكروا فى مولده سنوات ١٣٦ ـ ١٤١ ـ ١٤٥ ـ ١٤٨ ـ ١٤٩ وجاء فى الجزء السادس عشر فى الصفحة ٧٤ من معجم الأدباء عن الجاحظ أنه قال « أنا أسن من أبى نواس بسنة ، ولدت فى أول سنة ١٥٠ وولد فى آخرها » . وذكروا فى وفاته سنوات ١٩٥ ـ ١٩٦ ـ ١٩٧ ـ ١٩٨ ـ ١٩٩ ـ ولكنهم على الاجماع أو مايشبه الاجماع من أنه مات وعمره تسع وخمسون سنة . ولما كان أبو نواس قد رثى الأمين وكان قتل الأمين فى سنة ١٩٨ ، فالمرجح أنه توفى سنة ١٩٩ ، وهذا يحدد لنا مولده فى سنة ١٤١ وهذان التاريخان لمولده ووفاته يطابقان مانقله جامع ديوان أبى نواس حمزة بن الحسن الأصبهانى عن أبى بكر أحمد بن شقير النحوى عن أحمد بن أبى طاهر .

طالب علم

كان بأطراف البصرة ، فى بعض الدروب التى تخرج من سكة المربد ، بيتٌ من القصب تسكنه امرأةٌ أهوازية وفدت عام ١٤٣ على البصرة ومعها زوجها وهو وقتئذ طرّازٌ حائك . وكان الرجل بالمدينة العظيمة حديثَ عهدٍ ، فلا جَرَم يكون ضعيفَ المقدرة مضيَّقاً عليه فى الرزق . ولم تسكن امرأته لهذه الحال فجعلت ترضع بلبانِ غلامها « الحسن » ـ وكان ابن سنتين[1] ـ غلاماً من ثقيف . ولم يكن رزقها من الرضاع كثيرَ الغناء ، ولكنه كان عوناً على كل حال لمن كان بموضعهما من الحاجة وكثرة العيال . ولم تطل المدة حتى أرملت « جُلّبان » وأصبحت لا سند لها ولا عائل لولدها وكانت من النساء بَرْزَةً شِمْلالاً ، لها على الحياة جرأةٌ وإقبالٌ ، فلم يركبها همٌّ ولم تفتر لها همة . وعمدت إلى ما كان لها من صناعة ، فجعلت تغشى

(١) قيل فى بعض روايات ابن منظور ان أبا نواس انتقلت به أمه الى البصرة وهو ابن ست سنين ، ولكن الذى آثرنا هو ما ورد فى ابن خلكان من أنها انتقلت به وعمره سنتان ، لأن ذلك دون غيره يتفق مع حكاية الأصمعى أن أمه كانت فى البصرة ترضع بلبانه غلاماً من ثقيف ، وهذا القول قاطع بأنه كان رضيعاً وقت قدوم أمه به

البيوت بما تصنع من جوارب وأخراج بيدها الصَناع المدرّبة ، فانفرجت شدَّتُها وحَسُن أمرها ، وانتقلت إلى دار فى المدينة من الآجرّ والجص . ونفقت تجارتها ، وقَصَدها بعضُ الراغبين فى أشيائها من الغوانى والرجال حتى قيل إنهم كانوا يلتقون عندها على موعدٍ وإنها كانت تجمع بينهم لريبة .

وكانت المدينة متسعة الرقعة ، كثيرة العمران ، تغص بالسكان من كل لونٍ وسحنة . فهى واسطة العقد بين الشام وفارس ، تمتد تجارتها شرقاً إلى الهند والصين ، وتمتد غرباً إلى أقصى بلاد المغرب ، وترسو مئاتُ السفن فى فُرْضتها تحمل أصناف المتاجر من ناحية البحر أو الرافديْن .

وفى هذا المزدحم من التجار الوافدين والمقيمين ، وفى هذه الحال من وفور المال ، عاشت الأرملة « جُلَّبان » عيشتَها فى طلب الكسب . وكانت — مع ما يدخل إليها من ربح — لا تخرج عما انطبع عليه أهلُ الأهواز من البخل ، تعيش على خبز الأرز والكامخ من صغار السمك المملوح المعروف بالصحناء وبعض تمرات . ولم يزل هذا دأبها فى البخل على نفسها وعلى ولدها .

ولقد زاد « جُلَّبان » استمساكاً بالحرص ما كان يتقلب على عينيها أو يتصل بسمعها فى عصر الانتقال الذى تعيش فيه من فورات الهرج وكثرة الفتنة ، وما يشغب أحياناً من ثورات ويستشرى من فتوق ، حتى بعد أن استوثق الأمر للخليفة العباسى الثانى أبى جعفر المنصور ، ورسخت دولتُه بعد مقتل أبى مسلم الخراسانى وعلت فى الناس كلمتُه وملأت الصدور هيبتُه — ومن

ذلك ما جرى فى البصرة نفسها بين سمعها و بصرها . فقد ظهرت الدعوة فى سنة ١٤٥ لمحمد العلوى ـ الملقب بالنفس الزكية ـ من حَفَدَة الحسين بن على، وكان معظم رجال البيت الهاشمى ومنهم المنصور قد عاهدوه على المبايعة له بالخلافة فى أيام الثورة على البيت الأموى ثم عادوا فآثروا بها أنفسهم . وكان من شأن إظهار الدعوة أن وثب أخوه إبراهيم على البصرة ، فغلب عليها وأبدل شعار أهلها من السواد إلى البياض واتخذها مقرّه ، ثم انبسط أمره على الأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد . فلما وقر فى النفوس أن الدولة للعلويين ، وأنه قد أُديل لهم من خصومهم الأمويين والعباسيين جميعاً حتى قال فى ذلك بشار بن برد مشيّعاً لعهد أبى جعفر المنصور متشفّياً بمصير دولته :

أبا جعفر ، ما طولُ عيشٍ بدائم ولا سالمٌ عمــــا قليل بسالم

إذا بالجيوش العلوية تنهزم ، ويتبدل الحال غير الحال . وتعود البلاد كلها إلى حوزة الخليفة العباسى فيُعمل القتل فى العلويين ، وينكل بمن آزر دعوتهم من أشراف البصرة ، يَصلب منهم من يصلب ويسجن من يسجن ، ويدكّ دورهم ويخرب بساتينهم ويصادر أموالهم . واختلطت الأمور فى المدينة واضطربت الأرزاق ردحاً غير قصير من الزمن .

وواضحٌ من هذا أن الظروف المحيطة والأحوال الملابسة لم يكن من شأنها أن تعدل بجلبان عن طبيعتها ـ لو صح أن للمرء عن طبيعته مَعدلًا . فهى ماضية فى حرصها بتواطؤٍ من طبعها وعقلها .

ولقد دفعت جُلّبان الصبيَّ منذ نعومة أظفاره كسائر الصبيان فى البصرة الى كُتّاب من المكاتب القريبة من الدار . فكان « الحسن » يغدو إليه كل يوم يتعلم القراءة والكتابة والقرآن . وكانت أمه ترسل الأجر للمعلم خبزاً حتى تقدّم الغلامُ فكانت ترسل الدرهم والدرهمين . وكان جزاء التقصير فى المكاتب الضرب والحبس . والذى يرجع الى ديوان شاعرنا يقرأ له فيما يقرأ وصفَ غلام فى « مكتب حفص » ناله الضربُ من مقرعة المعلم وهو ناعمٌ من الغلمان المترفين المدلّلين . والمقطوعة كسائر مقطّعات شاعرنا غاية فى لطف التصوير وآيةٌ على خفة الروح والدعابة :

قال حفصٌ « إجلدوهُ إنّه عنـــدى بليدٌ
لم يزل مذ كان فى الدر س عن الدرسْ يحيدُ »
كُشفتْ عنه خُزوزٌ وعن الخزّ بُرود(١)
ثم هالوه بسَـــيْرٍ ليّنٍ ما فيـــه عود
عنـدها صاح حبيبى « يامعـلم لا أعود »

وكان اشتهر فى البصرة فى ذلك الحين القارئُ العالم يعقوب الحضرمى وهو من بيت علمٍ بالعربية والأدب، وقد ذاع تعليمه للقراءات وأصبح إمام البصرة فيها . وكان من أعلم أهل زمانه بمذاهب النحاة فى القرآن الكريم ووجوه الاختلاف فيه . فقرأ عليه « الحسن » القرآن . وكان زاهداً ورعاً ناسكاً ،

(١) الخز من الثياب ما نسج من حرير — والبرد ثوب مخطط .

فجعل يعلمه حسبةً ولا يأخذ على تعليمه أجراً . وزاد أنه حين رأى حفظَه وحذقَه رمى إليه بخاتمه قائلاً : « اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة »

ولما شبّ الغلام رغب فى الأدب وتعلّق بالشعر . ولم يقع ذلك من أمه موقعاً ترضاه ، وكانت لا تؤثر على التجارة شيئاً لما يحصل عنها فى البصرة من وافر الأرزاق . فأسلمته على رغمه إلى بعض العطارين يعمل عنده و يبرى له عود البخور . فلم يصرفه ذلك عما فى نفسه . وجعل كل يوم يأتى المسجد الجامع فيحضر العلم على شيوخه . وكان كل شيخ إلى سارية ، ولكل مُريدٍ أن ينتظم فى الحلقة التى يريدها . وكانت حلقات الدرس لا تقتصر فى المسجد على علوم الدين ، و إنما علومها مختلفات باختلاف ما تخصص الشيخُ فيه من المسائل والموضوعات . فكان « الحسن» يقعد بين مَنْ قعدوا الى أبى زيد الأنصارى النحوى اللغوى ، يسمع لما يستشهد به من أوابد الأبيات وفرائد البلاغات من كلام العرب وقصائدهم ورجزهم ، ويكتب عنه ما يشرح من نوادرها وغريب ألفاظها . و يتحول إلى «أبى عبيدة مَعْمَر بن المثنّى » الفارسى الأصل العربىّ المَرْبَى ، فينفسح له الأفق وهو يصغى الى كلامه المستبحر الجامع عن أيام العرب وقبائلهم وأنسابهم وأخبارهم وعلومهم ، ومقابلة ذلك بما عند الفرس وكان لشعوبيّته يتعرض للعرب أحياناً و يبسط القولَ فى مثالبها . ولقد كان أبو عبيدة ــ لأصله الفارسى ــ صاحب عبارة سيئة ، وقد يلحن ، و إذا قرأ البيت من الشعر لم يُقِم إعرابَه و يُنشدهُ مختلف العَروض ، مع وفور عقله واشتماله على علوم العرب . حتى جرى قولهم فيه أن من يأتى مجلسه اشترى

الدرَّ فى سوق البَعْر . وكان فتانا « الحسن » على كثرة عبثه به يقول عنه : « أديم طوى على علم » . ثم كان الحسن يقبـل على « خلف الأحمر » وهو من أبوين فرغانيَّيْن وقد أصبح راوية البصرة الأشهر ، وأعلم الناس فيهـا بالشعر ونقده وبالشعراء ومذاهبهم . فيتلقّى منه ويتتلمذ عليـه ويكثر من الجلوس إليـه . وكان يشهد أحياناً فى بعض الأركان من المسجد مناظرات الأدباء ومُلاحاتهم ويمرّ أحياناً ببعض الشعراء وقد انتحوا ناحيةً يُملون أشعارهم فى شتى الأغراض من المديح الى الغزل . وكان يحضر الحديث على الإمام « عبد الواحد بن زياد العبدى » وغيره من الحفاظ الأعلام ، والمحدّثين الثقات . فإذا اشتهى الكلام فليس يخلو المكان من أصحـابه يستمع إليهم ويأخذ عنهم

وظلّ الحسن أعواماً على هذه الحال يعمل بالنهار عند العطار ويتنقّل فى المساء بين هؤلاء وغيرهم فى مسجد البصرة وفى دورهم ، يلتهم علوم زمانه التهاماً ، ويطوى مراحلها طيًّا . وهو فى أثناء ذلك لا يَفْتُر عن معاناة الشعر وتسقّط أخبار الشعراء، وحضور مجالس الأدب ومصاحبة أهل المسجد والمجّان. وكان الفتى حسن الوجه ، رقيق اللون ، أبيض ناعم الجسم ، نحيفاً كبير الهامة منسدل الذوائب ، ألثغ بالراء يجعلها غيناً ، وفى حلقه بُحّةٌ لا تفارقه ، وذلك إلى لين طبعٍ وحلاوةِ شمائل . فكان إذا دخل حلقة الدرس التفتَ القوم إلى حسنه وحداثة سنّه وجَمْعِه خفةَ الروح والفراهةَ الى الذكاء وقوة التحصيل

وكان ممن لَقِيَهم صاحبُنا فى هذه السن أو نحوها محمد بن مناذر الشاعر.

فقد دخل ابن مناذر فى بعض الأيام المسجدَ الجامع بالبصرة ، فوقعت عينهُ على فتى مستندٍ الى السارية ، فالتمس رقعةً ودواةً فكتب إليه أبياتاً مدحه بها ، وسأل غلاماً أن يوصل الرقعة إليه . فلما قرأها الفتى قَلَبها وكتب على ظهرها ساخراً ماجناً :

مثلُ امتداحك لى بلا وَرِقٍ[1] مثلُ الجدار بُنى على خُصٍّ
وألذُّ عندى من مديحك لى سودُ النعال وليّنُ القُمْصِ

فلما قرأها ابن مناذر قام إليه فقال : « ويلك ، أأنت الحسن؟» . قال : « نعم » فسلَّم عليه وتعانقا . وكان ذلك أول المودة بينهما

ولقد أشار شاعرنا الى هذه الحال فى مستأنف أيامه فى قصيدة له مطلعها :

إذا ما وطِئَ الأمْرَ دُ للعلم حَصَى المَسْجِدْ

وكانت أمه قد شُغِلت عنه بغرامٍ جديدٍ بمن يُدْعى « العباس » شاع خبرهُ حتى شُهِرَت به ، ولقد أصاب الحسنَ من ذلك تعييرٌ لذاته وأقرانه ، وتعرّض فيه لقول مَنْ هاجاهم وهاجوه بعد ذلك من الشعراء والشواعر . ومنه قول أبان اللاحقى :

إن يكنْ هذا النواسىّ بلا ذنبٍ - هجانا
فلقد عفناهُ حيناً وصفعناهُ زمانا
هانئُ الجوْنُ[2] أبوه زاده الله هوانا
سائلِ العباسَ ، واسمعْ عنه من أمك شانا

(١) الدراهم المضروبة (٢) الجون الأسود اشارة الى شدة سمرته

ولم يكن إلا اليسير حتى حرم الفتى بعد أبيه البقيةَ الباقية من رعاية أمه فلقد انتهى الأمرُ بزواجها من الرجل الذى أحبّته . وكانت من صنف المرأة التى لا تصبر على عزوبة ولا تَغْنَى عن زوج . فانصرفت الى الزوج الجديد بكليتها وأذهلت عن ولدها ، فأهملت شأنه غاية ما يكون الإهمال ، وتركت للعطار أمره . وانقطع منذ ذلك الحين ما بين الفتى وأمه ، ولم يتصل سببٌ بينهما حتى موته .

ولعلّ الفتى ارتاح فى دخيلة نفسه إلى ما صار إليه من مطلق الحرّية ، إذا شاء ركب رأسه ، وإذا شاء لزم درسَه . فقد كان الحسن متقدماً على سنّه فى بكور عقله ، وفى يقظة حسّه . فهو شديد النهم الى المعرفة وإلى الحياة معاً . وكانت المدينة حوله بأسباب هذا وذاك عامرةً زاخرة .

كانت البصرة حاضرة عظيمة من حواضر العلم ، وأحَدَ المِصْرَيْن — البصرة والكوفة — اللذين كانا قبل بغداد يقومان على إشاعة المعارف والعلوم العربية ، وسائر البحوث النقلية والعقلية ، ومذاهب الكلام وألوان الأدب وضروب الثقافات . وكانتا فى ذلك تتنافسان وتتفاخران وتتكاثران بالنوابغ والعظماء فى كل حلبة وميدان . وكانت البصرة كذلك — بما يزحم أسواقها من التجارات وما اجتمع فيها من الأموال والخيرات — حاضرة عظيمة من حواضر اللهو ، تعجّ بما فيها من الملاهى وأسباب اللذة وموجبات الفتن

والغوايات . وبلغ من ذلك أن خلفاء بنى العباس حين فكروا فى التحرز لملكهم من أطماع الأمراء الهاشميين من أهل بيتهم ، لم يجدوا غير البصرة يُقطعونهم فيها القطائعَ والضياع الواسعة ، ويخصصون لهم الرواتب الجزيلة حتى يشغلهم مقامُهم فيها بين القصف والمتعة عن الشره الى الخلافة .

وكانت المدينة فى حَفْل من المناظر الحسنة والمجالس الأنيقة ، تتخللها المياه وتتوسطها الميادين العجيبة ، وتزهو بالخِصْب والنضارة والبساتين الكثيرة ذات الفواكه الأثيرة . وكان واديها الأعظم ــ مجتمع الفراتيْن المعروف بشط العرب ــ يُقبل ماؤه مُعْنِقاً ويفيض متدفقاً . وهو بالحدائق المتصلة منتظم ــ فأوله الرُّطَب ، وأوسطه العنب ، وآخره القصب ــ وبينها معاصر الدِّبْس . ولم يكن فى الدنيا أكثر نخلاً منها حتى كان يباع التمر فيها بأبخس الأثمان ، وكانت النخيل تتصل مسافات شاسعةٍ إلى أرباضها ومحلاّتها وما جاورها ، فلا يكون الإنسان فى مكان إلا وهو فى نهرٍ ونخيلٍ ، أو بحيث يراهما .

ولم يكن الحسن بالمغمَض العينين ولا بالمغلق القلب عن هذه المفاتن . وهو من علمنا من يقظة الحسّ وتفزّز الأعصاب وتشوّف النفس . وكان يمرّ فى كل صباح ومساء بالجداول والبرك الفسيحة تجرى فيها الزواريق والسماريّات وفيها المتنزهون ومعهم المغنيات من القيان ، والسقاة من الغلمان ، منحدرين ومُصعدين . فإذا احتواه حانوتُ العطار الذى يعمل عنده ، تطرّق إلى سمعه ما يذكره المترددون لشراء الأطياب والبخور من وصفٍ لما كان من مجالس

اللهو ونوادر السكر ، و إنشادٍ لأحدث ما نظمه الشعراء المحدثون فى الخلاعة والمجون . حتى إذا كان العشيةَ مع أهل المسجد لم تخْلُ حلقاتُ الدرس من روايةِ بعض الملح والبطَالات فى الحين بعد الحين ، يرويها المشايخ متفكهين غير متحرّجين ، بحجة أن فى بعض الهزل تنشيطاً للقلب وذهاباً بالـكلال ، فضلا عمن كان يَلْتقى بهم الفتى و يرافقهم فى الطريق من الشطّار والعيّارين ومن لفّ لفّهم من خلطاء السوء

الذئب والحمل

لزم « الحسن » سوق العطارين بعد زواج أمه ، ولم يهجر حانوت العطار الذى أسلمته إليه ، وإن يكن قد كره هـذه الصناعة وملّها ، بمقدار ما زاد اشتغاله بالأدب واهتمامه له وكثُر غشيانهُ للأسمـار وسماعهُ لرواة الاشعار . وكانت نفسه تهتزّ للشعر ، تتشرّب معانيـه شرباً ، وتتطرّب لوزنه ونغمه طربا ، وتغمرها منه غمرةٌ تُسكر حسَّه وتغلبه على وَعيه . وكانت أُمنية حياته التى بها يحـلم ، أن يتصل بهؤلاء الذين يتردد على سمعه ذكرُهم ويتغنى أهلُ العصر بشعرهم .

ولقد شاء القدرُ الساخر فيما يخلط من خـيرٍ وشر ، أن احتاج عاملُ المنصور على الأهواز « أبو بجير الأسدى » إلى عطرٍ يُعمل له ، فـلم يجد فى الأهواز عطاراً يصلح لذلك . فبعث إلى البصرة فى طلبه ، فأشخصوا إليـه أستاذَ الحسَن والحسَن معه . وأقاما يعملان فى داره . واتفق أن قدم الأهواز والبةُ بن الحباب الأسدى الشاعر قاصداً للأمير ـ وهو ابن عمه ـ فمدحه وأقام عنده . ووقع نظرُ الشاعر الغزِل الماجن على « الحسن » فاستحلاه وأعجب

بظرفه . ثم خاطبه ووَصَلَ معه الحديث ، فسرّه ما كان عليه « الحسنُ » من الذكاء والمعرفة ، ولم يلبث أن اطّلع منه تعلقاً بالشعر ، ورغبةً فى الاقتدار عليه ومجاراة صاغةِ القريض وروّاض القوافى من الشعراء المذكورين .

فقال له : « إنى أرى فيك مخايلَ فلاحٍ ، وأرى لك ألا تضيّعها . وستقول الشعر وتعلو فيه . فاصحبْنى حتى أُخرّجك » .

فتطلع الفتى متشوّفاً إلى هذا الذى أحسنَ الظن باستعداده ، وقَطَعَ على نفسه العهد الأكيد بتخريجه . ولم يملك أن سأله مبتدراً : « ومن أنت ؟ » .

قال : « أبو أسامة » . فهتف الفتى : « والبة ؟ » . قال : « نعم ! » .

فتهلل الفتى وفاض قلبُه بما كان يُخالجه زمناً : « أنا والله ـ جُعلتُ فداك ـ فى طلبك ، وقد أردتُ الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك » .

قال الرجل متعجبا مغتبطا : « ولماذا ؟ » .

فاسترسل الفتى سابحَ النظرة فائرَ النفس : « شهوةً للقائك ، ولأبياتٍ سمعتُها لك » . قالَ : « وما هى ؟ » .

فأنشد الحسن بصوت حلو اُلثغ ، يجعل الراء غينا ، وفى نبرته حرارةُ الإعجاب وهِزّةُ التأثر :

ولها ـ ولا ذَنْبَ لها ـ حُبٌّ كأطرافِ الرماحِ
جرحتْ فؤادَك بالهوى فالقلبُ مجروحُ النواحى

فازداد والبة حبًّا وعَجَباً .

وكان والبة مذكوراً فى البصرة ، وقد شاع ذكره واستطارت شهرتُه فيها لقدومه فى جملة من قدموا على « محمد بن أبى العباس السفاح » حين ولاه عليها الخليفةُ أبو جعفر المنصور فى سنة ١٤٧ بعقب مقتل ابراهيم العلوى . فلقد ورد العاملُ الجديد ومعه جماعةٌ من الشعراء والمغنين ، وأصحبه عمُّه المنصور ـ داهية بنى العباس ـ قوماً يُعاب بصحبتهم ومجّاناً زنادقةً ، ليبغّض ذلك منه فيرتفع ابنُه المهدى عند الناس . وكان « محمد بن أبى العباس » يغلّف لحيتَه بأواقٍ من الغالية فتسيل على ثيابه فتصير مسمرّةً حتى لقبه أهل البصرة « أبا الدبْس » . وكان ممن يُغنّونه دُحْمان وحَكَم الوادى ويشترك معهما أحيانا مؤدبه الخليع حمّاد عَجْرَد فى جماعة من ندمائه منهم والبة ، وهم جميعا يشربون ، فيسكر ويسكرون ، ويغلبهم السكر فينامون فى مواضعهم . وكان الأمير « محمد » قوىّ البنية شديداً نهايةً فى الشدة ، فكان أول من يفيق منهم . وكان يهوى « زينب بنت سليمان بن على » فاذا شرب غنّوه بما قال ـ أو بما قال حماد عَجْرد على لسانه ـ تشبيباً بها فيطرب ويضرب برجله . وكان يأنس أشد الأنس بوالبة ، ويسكن إلى ظرفه وخفة روحه ، ويستحسن شعره ووصفه للشراب ، حتى يُؤْثَر عن ذلك فى البصرة أنّ حَكَماً المغنى دخل عليه أيامَ ولايته بها ، وكان يوم نيروز ، فإذا به يتملّل خُماراً وبيده كأسٌ وهو يجتهد فى شربها فلا يطيقها ، وندماؤه بين يديه وفى أيديهم أقداحهم . فقال «ياحَكم غنّنى ، فإن أطربتنى فلك كلّ ما يُهدى إلىّ اليوم»

وكان بين يديه من الهدايا أمرٌ عظيم . فعمد الحكم إلى أبياتٍ لوالبة ، فاندفع يغنّى بها :

قد قابلتنا الكؤوسُ ودابرتنا النحوسْ
واليوم هُو نيروزٌ قد عظّمته المجوسُ
لم تُخْطِهِ فى حسابٍ وذاكَ مما تسوسْ

فطرب الأمير لها ، واستعادها ثلاث مراتٍ ، وعبّ قدحه ، واستمر فى شربه . وأمر لمطربه بأن يُحمل إليه كلُّ ما كان بين يديه .

وكان هذا وغيره من الأخبار والأشعار يشيع عنه فى البصرة ويتسامع به أهلها ، حتى صار حديث ظرفائها فى تلك الأيام . فوقع الحبنُ ـ ولا جرم ـ تحت تأثيرها ، وأخذته شهرةُ الرجل بسحرها . فلما التقى به ، كان تلقاءه كالمنوَّم خَدِر النفس مضعضع الحسّ مسلوب الإرادة . فلم ينشب والبةُ أن اختدعه حتى صار معه إلى الكوفة .

ورد الغلام مع أستاذه إلى الكوفة ، فطالعه من جانبها الشرقى نخيلٌ ملتفةٌ متصلة تمتد امتداد البصر ، وألفاها ألطف من البصرة حرًّا ، وألفى الهواء فيها أصحّ ليس بالرطب الثقيل ولا بالذى يختلف فى اليوم الواحد ، وهى كذلك أطيب ريحاً بما فى سوادها من الورد والياسمين والأترنج ، بخلاف البصرة إذا هبّت الجنوب على أرضها النشّاشة السبخة . والكوفة مرتفعةٌ عن البصرة معظمها على الفرات ومنه شُرْبُ أهلها . ويأتيها الماء بعذوبته وبرده ، ولا يأتى البصرة إلا بعد تغيّره وفساده مع ما يصيبه من الملح الذعاق إذا كان

المدّ فى الخليج الخارج من بحر فارس . ومع هذا كله فقد رأى الحسن ـ وإن كان قد احتفظ بما رأى لنفسه ولم يصرح لوالبه وصحبه ـ أن البصرة حيث مدرج طفولته ومعهد صباه لم تزل أحبَّ إلى قلبه وأحلى فى عينه من أختها الكوفة ، وأنها أقوى منها عمارةً ، وأكثر خَلْقاً وأزحم قَدَماً وأدوم حركةً ، كما أنها أشد تنوّعاً وأبهج مجلى ، أوتيتْ من كلّ حلى وزينة .

وكان والبة بن الحباب على قولهم فى نسبته ـ أَسَدِيًّا صليبة . ولكنه كان مع ذلك أشبه بالموالى الروم منه بالعرب ، فهو أشقر ، أبيض اللون محمرّه ، ذهبىّ الشعر ـ كما تدل عليه صفتُه فى هجاء أبى العتاهية له وتهجينه لنسبه . إذ يقول من قصيدة :

وابن الُحباب صليبة زعموا ، ومن الُمجال صليبة أشقرْ
ما بالُ مَنْ آباؤُه عَرَبُ الأ وان يُحسب من بنى قيصرْ
أترون أهل البدو قد مُسخوا شُقْراً ؟ أما هذا من المنكَر ؟
أكذا خُلقتَ «أبا أسامة» ، أم لَطّختَ سالفتَيْك بالعُصْفر
مالى رأيتُ أباكَ أسودَ غر بيبَ القَذَالِ كأنه زُرْزُر
وكأنّ وجهَك حمرةً رئةٌ وكأن رأسَك طائرٌ أصفر

ومن قصيدة أخرى :

أوالبُ ! ما دهاك ، وأنـ ـت فى الأعراب ذو نَسَبِ ؟
أراكَ وُلِدْتَ بالمـبريّ ـخ يا ابن سبائك الذهب
فجئتَ أُقَيْشر الخـديـ ـن ، أزرقَ ، غارمَ الذنبِ

هَلُمَّ إلى الموالى الصِّيـ ـد فى سعة وفى رَحَبِ
فأنت بنا – لعمر اللـ ـه – أشبه منك بالعربِ

وأهاجى الشعراء فى والبة كثيرة ، وأكثرها فاحشٌ مقذع كالذى هجاه به «سَلْم الخاسر» – وهو راوية بشار وتلميذه – لِما كان عليـه والبة من المقابح والمقاذر الخلقية . وكان والبة أبعد ما يكون عن ملازمة أهل الجد من العلماء والفقهاء والمحدِّثين وأصحاب الاجتهاد فى الدين ممن اشتهروا فى مدينة الكوفة الجليـلة ، وفاخرت غيرَها بهم . وإنما كان يجتمع إليه فى الكوفة جماعةٌ منهم مطيع بن إياس ، وحمّاد عَجْرد ، ويحيى بن زياد الحـارثى من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسيـة ، وهم فوق عبثهم بالجوارى والإماء يعدّون أقدم المتهتكين فى تعشق الغلمان من الشعراء . فيتنادمون فى بعضِ دورهم على الشراب والغناء ، ويتناشدون الشعر ، ويسكرون فيعربد بعضُهم على بعضٍ أقبحَ العربدة ويَتَهَاجون هزلًا وعمداً أفحش الهجاء . وكان أهل الفن لذلك العهـد يتعاشرون فلا يكادون يفترقون ، ويتشاركون فلا يكاد يستأثر أحدُهم على صاحبه بمالٍ ولا مِلْكٍ حتى الجوارى والغلمان . ولا عجب فكلُّهم خلعاء مجّان مستهترون ، ليس فيهم إلا متظرّفٌ منسوبٌ إلى الزندقة خبيثُ العقيدة متّهَمٌ فى دينه . فلما قدم والبة إلى موطنه ومعه الحسن ، وجّه إلى أصحابه وندمائه ، فجعل لهم مجلساً احتفاء بتلميذه ، ولبثوا أياما فى صَبوح وغَبوق ، يسمرون ويتمازحون وينشدون الأشعار .

وكان والبة ماجناً طَبْعاً . وكان مِضياعًا متخرّقًا فى النفقة على الجوارى

والغلمان ، وعلى بواطى الخمر المعتّقة مبذولة للشّرْب المنادمين ، وعلى الخوان ممدوداً للإخوان المؤاكلين . حافلاً بكل ما لذّ وطاب من غير حساب . وهو مع هذا ليس بالعظيم الثراء ولا الموسَّع عليه فى العطاء ، فلقد فاته الحظ فى منادمة الخلفاء ، مع ما يؤثر من استحسان المهــدى لبعض أشعاره ، كراهةً منهم لإسفافه فى أكثر قوله ، واشتهاره بين الناس بالفاحشة القذرة واستهتاره فيها . وإنما كان يقصد إلى من يشا كله من عمّال الأمصار ، وهؤلاء كانوا لا تدوم لهم دولة . ولا يُقامون بعملهم حتى يُصرفوا عنه ويُزالوا . فلم يكن له من معوّل على غير المجدودين من أقاربه ، ثم مَنْ هم أكثر منه حُظوةً أو أقل تبذيراً من أقرانه . ومن ذلك ما ذكرناه من قدومه على ابن عمه أبى بجير الأسدى عامل الأهواز ، ثم ما نحن ذاكروه من قصده إلى الشاعر حماد عَجْرد يطلب إليه بعض المال ، فلما أنظره لم يأنف من العودة إليه . ويقول الرواة فى ذلك انه سأله عما وعد ، فقال حماد « لم أصنع شيئًا » ، فدعا والبةُ بدواةٍ وقرطاس وأملى مَن كتب له هذه الأبيات :

حمّادُ ما كانت عِدا   تُكَ بالعِداتِ الكاذبه
فعــلامَ ، ياذا المكرما   ت وذا الغيوث الصائبه
أَخّرْتَ - وهى يسيرة   فى الرد ـ حاجةَ « والبه »
فأبو أُســـامة حقه   أَحَــدُ الحقوق الواجبه
فاستحىِ مِن ترداده   فى حاجــةٍ متقاربه
ليستْ بكاذبةٍ ، ولو   والله كانت كاذبه

فقضيتَها أحمدتَ غِبٌ قضائها في العــــاقبه

وبديهي أن حماد عَجْرد إنما يسمع لأول مرةٍ مَن يمدحه وينعته نعتَ ذوي المكرمات الضافية والغيوث الصائبة ، فلا غرو أن قيل بعد ذلك إنه قضى للمادح حاجته وزيادة .

وكان والبة يكثر من الخروج للنزهة ومعاقرة الخمر في دساكر طيزناباذ بين الكوفة والقادسية ، فيظل يشرب حتى يسكر ، ولا يفيق من السكر إلا ليعاود الشرب ، ويقيم على ذلك أياما لا يكاد يصحو . وقد صحبه « الحسن » إلى هذه الأماكن يتنزه معه ويشرب ، وكان والبة لا ينى يغمز عليه الساقى فيسقيه حتى يتلف ، فإذا هو إلى جانبه سكران لا يعقل ولا يعى ما يفعل ، قد خلع الحشمة وَمجَن . ولقد ذهب ذات مرةٍ في المجون أن جعل والبة في سكره يقبض على السكين ويهم بقتله ، لولا ما أظهر الفتى من سرعة البادرة واستحضاره لمثلٍ من الأمثال العائرة ضحك له أستاذه الخليع . وظلّ والبة على هذه الحال مع تلميذه يحيف عليه بالشراب ويغريه بالمجون والاستهتار ، حتى تم له مرادُه من توهين خلقه وإفساده .

وإذا كانت هذه المعاشرة لوالبة وأصحابه قد علّمت « الحسن » الفساد والعهر ، فقد هيأت له الاتصال بالشعراء ، وحفزته منادمتُهم في مجالس السكر إلى النطق بالشعر . ومما يروونه في ذلك أنه اجتمع وهو صغير في صحبة أستاذه بالأقطاب الثلاثة حماد عَجْرَد ومُطيع بن إياس ويحيى بن زياد ، فقالوا « ليكن منا اجتماعٌ في دار أحدنا » .

فقال حمّاد :

يا إخوتى عندى لكم بطّةٌ ودَنُّ خمر من رَساطونِ[1]
ولحمُ طَيْرٍ وأتابيعُه فإن نَشِطتُم فأجيبونى

وقال مطيع :

اللهو عندى جميعاً حديثُه وعتيقُه
وقُرطَقىٌّ[2] شهىٌّ يفُوحُ منه خَلوقُه[3]
والخمر عندى عتيقٌ يشفى القلوبَ غَبوقُه[4]

وقال يحيى بن زياد :

عندى نبيذٌ معسّلٌ والموصلىٌّ وزَلْزَلْ[5]
وبطةٌ وخروف وماء مُزْنٍ مزمّل
وبَرْبطٌ وصنُوجٌ[6] وصوتُ ناىٍ وجُلْجُلْ

وعندها التفتوا جميعهم إلى « الحسن » كأنما له — وهو الصغير الغريب بينهم — دارٌ ومالٌ مثلهم، فأُرتج عليه لحظةً ثم ضحك وقال :

لا تطمعوا فى شَرابى فتَحْصُلوا فى السراب
فدون خبزى ولحمى والخمرِ شيبُ الغراب

---

(١) لفظ رومى معرب وهو شراب يتخذه أهل الشام من الخمر والعسل (٢) قرطقى أى نديم يلبس القرطق وهو ضرب من القباء من زى العجم (٣) ضرب من الطيب .
(٤) الشرب بالعشى (٥) الموصلى وزلزل من أعلام الموسيقى والغناء
(٦) البربط نوع من العيدان والمزاهر — والصنج صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب على أخرى مثلها للطرب ، أو آلة للطرب لها أوتار .

ومضى الحسن يشاركهم بالبيتين والثلاثة كلما تنادموا على الشراب . وكان ينعقد لهم فى كل يوم مجلس من هـذه المجالس فى عقر دورهم أو على سطوحها أو فى ظاهر المدينة بين البساتين أو فى بيوت الخمارين . ولقد أفاد الفتى من ذلك مرانةً على النظم وقدرةً على الارتجال ، وصار فى مقدوره كلما شاء أن يكون كلامه كله شعراً بغير جهد ولا معاناة . خرج يوماً مع والبة من الكوفة يريدان الحيرة وكانا يمشيان وأرجلهما تغوص فى الرمل وقد جاعا ، فدار بينهما من المقال ما يدور فى أمثال هذه الحال إلا أنه شعرٌ :

الحسن : ياليت فيما بيننا ستّـةً أرغفةً ما بينها وَزّه .
والبـة : من وَزّ أرض الصين يُؤتى بها مشويةً تتبعها رَزّه
الحسن : خوذابة[1] ، تُؤْخَذُ من بعدها خمرٌ من الحِيرِيّةِ المُزّه
والبـة : يُديرها ساقٍ وقد شابها من ماء مُزْنٍ صَوْبُ مؤتزّه[2]
الحسن : طاب لنا العيش ولكننا أرجلنا فى الرمل مرتزّه[3]

وجملة القول ، أنّ تواترَ هذه المنادمات والمطارحات ، كان داعياً للحسن على شحذ قريحته وإيقاظ ملكته إلى إدراك المعانى واقتناصها ، والاستعدادِ لها باللفظ المناسب والقالب المحكم . فكان فى كل يوم يزداد تمكناً من فنه ، ويزداد معه ثقةً بنفسه . فلم يقف عند المحاكاة والاقتداء ، بل جعل يجاذب الجماعةَ ويباريهم ، ويطاولهم ويستقلّ عنهم .

(١) طعام يتخذ من سكر ورز ولحم (٢) سحابة فائرة (٣) مغروزة ثابتة

صبوات الصّبا

كانت الكوفة فى ذلك العهد مشهورة مذكورة عند أهل السماع بقيانها الحسان الضاربات بالعود الحاذقات بالغناء . وكان أجلُّ المقينين بها وأكبرهم عبد الملك بن رامين ، ومن جواريه سلامة الزرقاء وسعدة وربيحة وغيرهن. وقد قال الشعراء فيهن وأعادوا القول يذكرونهن بالحسن وحلاوة الصوت وأفانين الصناعة . وكانت ربيحة سمراء مجدولة وسعدة بيضاء ليّنة . وكانت أوفرهن حظًّا سلامة الزرقاء وكانت تخرج إلى المعجبين بها فى إزارٍ ورداء قوهيّيْن[1] مورّديْن كأنّ الشمس طالعةٌ من بين رأسها وكتفيْها ، وقد أشال نهودُها ثوبَها عن صدرها ، ولها كالشارب وبرٌ خفيف مخضرٌّ ممتدٌّ على شفتها ، وكأنما خُطّتْ طرّتها وحاجباها بقلم ، فلا يبرح يلحظها الطرف ، ويقصر عن كل ضرب من ضروب حسنها الوصف .

وهؤلاء الجوارى القيان قد شُهِر بهنّ الكثيرون من فتيان وشيب ، منهم الشعراء وأهل الأدب وأصحاب الإمارة . وكانت تُبذل أموال عظيمة فى شرائهن، أو من أجل قبلة، أو ابتسامة رضا منهن. ولقد عرض بعضُهم لؤلؤتين، نَقَدَ فيهما بالأمس أربعين ألف درهم ، ولم يشرط على القينة ليكونا لها إلا أن

---

(١) نسبة الى قوهستان

تأخذها بشفتيها من شفتيه . وكان ممن يجتمعون عند ابن رامين معنُ بن زائدة وابنُ المقفع وروحُ بن حاتم المهلبي ، فذكر الرواة فيما ذكروه عنهم أنه في مجلس سماع من هذه المجالس تغنّت الزرقاء ، فبعث مَعْنٌ إليها بَدرةً فصُبت بين يديها ، فبعث روحٌ إليها أخرى فصُبّت بين يديها ، ولم يكن عند ابن المقفع دراهم فبعث بصكّ ضيعته .

ولم يكن منزل ابن رامين وحده المشهور بقيانه ، بل كان مثله منزل الشيخ زريق بن منبج مولى عيسى بن موسى وكان يجتمع إليه أشراف الكوفة من كل حي . وكان بين المنزلين منافسة تظهر في حرصهم على مرضاة هذا الشاعر أو ذاك لما في الشعر من حسن الدعاية .

في هذا العهد من التولّع بالغناء والمغنيات كان مَقْدم « الحسن بن هانئ » الفتى مع أستاذه والبة على الكوفة في سنة ١٥٦ أو نحو ذلك . فلا غرو أن كانت مجالس اللهو والشراب التي كان يعقدها هنا والبة وأصحابه لا تخلو في بعض الأحيان من الجواري القيان اللواتي على شاكلتهم ، من كل ماجنة متهتكة ، أديبة متظرفة ، وقاح الوجه سليطة اللسان . فكن يعاطين هؤلاء المجّان الراح ، ويستحثثن إليهم الأقداح ، ويسابقنهم إلى الشرب ويجالسنهم متبذلات ، ويطارحنهم المجون والبذاء ، فضلا على اللعب بالعود والغناء . ولعل الحسن كان يشاركهن ، فقد كان من صغره مولعاً بالعود يضرب به. ومضت على ذلك أيام وأيام . ولا ندري بعدها أكانت المصادفة، أم دراية هؤلاء النسوة المجرِّبات بما عليه الرجال من حب التجديد والاستطراف

وولع الكبار منهم بالصغيرات خاصة ، هى التى شاءت لهن أن يصحبن معهن إلى المجلس طفلة كاعبا . وكان معظم اللواتى يغشين المجلس ممن تجاوزن غرارة الشباب وأدركهنّ النضج ، ممتلئة أجسامهن ، ثقال روادفهن وافية تقاطيعهن وأعطافهن ، وقد طالت لهن بالرجال ملابسة وخلطة ، وقتلن الحب معرفةً وخبرة ، حتى صِرْن أفتر نشاطاً وأثقل نهضة وأسكن حركة مع فجورهن وخلاعتهن ومع ما يبدينه من تصنعهن وتكسّرهن وكثرة تضاحكهن . وأما الضيفة الغريرة الصغيرة السنّ فانها تختلف عنهن : مهفهفة القوام ، طويلة خوط المتن ، لا يكاد يبين لنهديها حجم ، مسترسلة الأعطاف ، غلامية الأرداف ، فهى إلى الغزال أقرب منها إلى المهاة . وكانت خفرة مسبلة الهدب غضيضة الطرف ، خدّها من الحياء كجَنَى الورد ، وكأنه أول خروج لها من خدرها . ولقد تلقتها الجماعة لقاءهم لغيرها بالمزح والعبث شأن أهل اللهو ، إلا « الحسن » شذّ عنهم فى هذه المرة ، وكأنما أُنْسِىَ ما أخذه عنهم من العربدة والمجون . فبقى معهم سواد الليلة ساهما محتشما على غير عادة ، مع أنه حاف على نفسه فى الشرب وأكثر فوق العادة . ولما أظهر القوم عجبهم له اعتذر بوعكة خفيفة به . ولو لم يُلْهِهم عنه ما هُم فيه من السكر لألْفَوا الفتى فى وجومه يلحظ الفتاة ويختلس إليها النظرة ، وهى على حيائها لا تحسو من قدحها بعد اللجاجة والإلحاف الا النغبة بعد النغبة مستكرهةً للشرب لم تتعوده تعوّد المتوفرات على مجالسه .

وقضى الجماعةُ والجوارى سهرتهم على المألوف من سنّتهم فى المعاقرة والقصف ، حتى غار النجم و بدا فلق الصبح ، فاستقبلوه بالصبوح ثم تفرقوا .

وغابت الفتاة فترة ، فأخذ الفتى يستطيل غيبتها و يديم التفكير فيها . ولعل الذى وَصَلَها بقلبه ما بينهما من تقارب العمر ، وتلك الغرارة التى لم يعرفها فيمن لقيهن من النساء حتى لقيها . و إنه ليحس نحوها بشىء لا عهد له به ، يسرى فى كيانه و ينساب إلى وجدانه و يمتزج بأجزاء نفسه و يخالط قواها .

ثم تكررت مصاحبة الفتاة للجوارى فى زوراتهن ، و « الحسن » يزيد اشتغالا بها كل يوم ، حتى لقد أسهرت ليلَه وأرّقت عينه ، واشتدت به الحال وساءت صحته وشفّه السقام . وزاد فى بلائه كما زاد فى عجبه أن رأى فتاته لم تنشب أن تعوّدت الشراب حتى انساقت مع الجماعة ، منصرفةً عما كان يبديه لها من جدّ الحبّ ، مؤثرة لما هُم بسبيله من متاع القصف واللهو الصاخب

وانطوى الفتى على نفسه وعكف على يأسه وازدحمت فى خاطره المعانى ، فتحركت شاعريته وانبعثت ملكته ، وجرت قريحته بأول ما جرت به من شعر وجدانى صادر عنه غير مقترَح عليه :

حاملُ الهوى تَعِبُ يستخفّه الطربُ[1]

إن بكى يحقّ له ، ليس ما به لعب

تضحكين لاهيةً والمحب ينتحب

(١) ذكر ابن خلكان أن هذه الأبيات أول ما قاله الحسن من الشعر وهو صبى .

تعجبين من سقمى صحتى هى العَجَبُ
كلما انتفى سببٌ منك ، جاءنى سبب

ثم غابت الفتاة بعد مدة وانقطع خبرها ، كما غابت من النساء غيرُها وحلّت أخرياتٌ محلّها ، شأنَ من يتعرضن لهذه الحياة الطائشة المتقلبة وينزلن فى غمارها .

ولكن الفتى وقف هنا وقفة، ولم تعبر به هذه الواقعة إلا بعد توكيد العبرة. فقد اقترن فى نفسه ما كان من أمه وتفريطها فيه وهو صغير إيثاراً للتبعل ، ثم ما كان وهو شاب من هذه الفتاة الغريرة وانصرافها بطبعها عن جدّ العاطفة إلى هزل الحياة ولهوها . فاجتمع له فى بداية تكوينه من هذين رأىٌ فى «المرأة والحب والحياة» بقى فى نفسه وحسّه مثل وسم النار لا ينمحى آخر العمر .

ولقد استأنف الفتى عيشته ، ولكنه استأنفها غير مقبل عليها ولا ملتذّ طعمها . والذكرى تراجعه ، وخيال الفتاة يعاوده . ومن كان مثله فى سنّ العشق ، لابد أن يتحرّق من لاعج شوق . ومهما يكن فى هذه السن من غلبة الطبيعة وتيقظ الحسّ ، فانها أيضا أوان تفتّح العاطفة والاستجابة الوجدانية لدواعى النفس .

وكان من تطاول الأيام وتعاقبها عليه أن خلصت واقعة حبه الصبيانىّ من ملابساتها المادية ، وتحولت صورة الفتاة فى مخيلته صورة بغير هيولى ، وصارت فى باطن وعيه وقرار سريرته كالمُثُل المجردة فى عالم المعانى .

واتفق وهو فى هذه الحال أن قدم بصحبة والبة إلى منزل محمد بن سيار ابن يعقوب، ولديه قيانٌ أخرجهن لندمائه ، وجلس ابنهُ فى صفهن وكان جميلا رائعاً فى العين مع حسنِ موقعٍ فى النفس . فكان من فيض خاطر «الحسن» وسبحاته العبقرية إنشاؤه لهذه الأبيات اللطيفة الروحية .

يا ظبي ابن سيارِ وزينَ صفِّ القيانِ
خُلقتَ فى الحسن فرداً فما لحسنك ثانِ
كأنما أنت شيءٌ حوى جميع المعانى
لَينعتنّك وهمى إن كلَّ عنك لسانى

واستفاضت للحسن بهذه الأبيات وغيرها شهرةٌ فى بعض أوساط الكوفة ، فاتصل به أدباؤها ورغبوا فى صحبته ، فشاهدوا منه أدباً جماً ، وكبُرَ فى أعينهم وعظُم موقعهُ عندهم . وكان أشدهم شعوراً بعِظَم استعداده وما هو مدّخر له فى مستأنف حياته ، أستاذُه والبة بن الحباب ، حتى عرض ذلك له فى الأحلام .

فانه ـ فيما يرويه عن نفسه ـ يقول: كنتُ نائماً ذات ليلةٍ ، والحسن إلى جانبى نائم ، إذ أتانى آتٍ فى منامى . فقال الهاتف : « أتدرى من هذا النائم إلى جانبك ؟ » . قلت : « لا » .

قال : « هـذا أشعر منك وأشعر من الجن والإنس . أما والله لأفتننَّ بشعره الثقلين ، ولأغرين به أهل المشرق والمغرب » .

فعلمت أنه إبليس . فقلت له : « فما عندك ؟ ».

قال : « عصيتُ ربي فى سجدة فأهلكنى ، ولو أمرنى أن أسجد لهذا ألفَ سجدةٍ لسجدت » .

ولم يكن « الحسن » ليخفى عليه موضعُ الإحسان فى قول، فكان من ذلك أنه ـ على صغره ـ لم يأخذه الشك فى شعره، بل توكدت معرفته لقدره ، ولم ير عليه لأحد ممن حوله كبيرَ تقدمٍ ومزية . فأدركته أَنَفَةٌ من الحياة التى يحياها مع والبة . فاعتزم الرحيل ، وآذنه به، معتذراً بالخروج مع وفدٍ لبنى أسدٍ إلى البادية فى طلب شوارد اللغة والاحاطة بغريبها والتمكن من مذاهب الأعراب فى الجزالة وفحلىّ الكلام .

أثر البادية

أقام « الحسن » في البادية سنةً أفادت روحُه في أثنائها مسحةً من روحها، واكتسب من صحة جوّها بعضَ الصحة في جسمه ونفسه ، وزادت حياةُ الفطرة من دقة ملاحظته ورهافة حسّه . ثم عاد إلى البصرة من بعدها مثقلَ الجعبة من مأثور بلاغاتها وفرائد عباراتها وأراجيزها ومقطّعاتها . ولقد احتقب خيالُه فوقَ ذلك الكثيرَ من مناظر البادية ومجالي جمالها ، وتعرّف أرضها وسماءها ونباتها وحيوانها، حتى أصبح أعرَفَ أهل الحضر بها وأبصرَهم بمجالها وكانت هذه الخبرةُ عتادَه فيما نظم بعد ذلك من القصائد العصماء في بابي الصفات والطرديات .

وتلقّى أهلُ البصرة عودةَ « الحسن » بالتعجبِ والتساؤل ، لما كانوا يعهدون عنده من فرط الإعجاب بوالبة وتغنّيه بشعره ولهَجِهِ بذكره قبل أن يلقاه ، وكان ظنُّهم وقد لَقِيَه أنه غيرُ مفارقٍ له العمرَ كلَّه . فكان « الحسن » أول عودتِه يسمع في كل خطوةٍ مَنْ يقول له بعد تحيته : « أرغبتَ عن والبة وملتَ الكوفة ! ! » فيجيب موجزاً متأدباً : « هي أجدى وأطيب من أن

تَمَلٌّ ، ووالبة ممن لا يُرْغَب عنه ، ولكنّى نزعتُ الى الأوطان واشتقتُ الى الإخوان »

واستأنف « الحسن » فى البصرة حياة الدرس والتحصيل . وكان لحلقات الشعراء بالبصرة موضعان : موضع بالمربد ، وموضع بالمسجد ، وكان الحسن يغشاهما ولكنه لم يكن يقصر غشيانه عليهما ، بل أقبل على كل فن وعلم . وقد بلغ من ذلك أن تحدّث عنه جماعةٌ من الرواة ممن شاهدوه فى مستقبل أيامه فقالوا : « كان أقلُّ ما فى الحسن قولَ الشعر ، فقد كان نحلاً راوية عالماً » .

والبصرة أسبقُ عهداً من الكوفة بنهضة النحو واللغة والأدب ، وعلماؤها من أرسخ الناس فى العلم قدماً وأغزرهم مادة وأَوْلاهم بالثقة وأصحّهم سنداً ، مع ما كان من ظهور الكوفيين وقتئذ ، وتقريب خلفاء بنى العباس لهم واتخاذ المؤدِّبين لولدهم من بينهم ، جزاءَ نَصْرِهم إياهم والسرعة الى تلبية الدعوة دون أهل البصرة حين قاموا لطلب الخلافة . وجعل الحسن يختلف إلى حلقات الدرس التى كان يختلف إليها قبل سفره ، يأخذ عن هؤلاء العلماء الأعلام أنفسهم ويأخذ عن غيرهم . وأقبل كذلك على نحو سيبويه ينظر فيه ، وكان كتاب سيبويه آية العصر لم يَسْبق أحدٌ الى مثله ، وامتنع فى اعتقاد القوم أن يلحقه أحدٌ من بعده ، فهو الإمامُ فيه ابتدعه لا على مثال . وكان قد بلغ من شهرة كتاب سيبويه أن كان يقال بالبصرة « قرأ فلانٌ الكتاب » فيُعلم أنه كتاب سيبويه ، و « قُرِئَ الكتابُ » فلا يُشكّ أنه كتاب سيبويه ، وكان

أشرف هدية تُهدى الى أهل العلم . وكان القوم كلهم على تعظيمه واستصعاب ما فيه . فلا عجب أن نرى المترجمين للحسن يحرضون على ذكر قراءته له ونظره فيه .

ولم يكن بين أساتذة « الحسن » بعد عودته من الكوفة الى البصرة مَن لزمه الفتى وأفاد منه مثل « خلف الأحمر » . ولا جرم ، فقد كان شاعراً يعانى نظم القريض ويحسنه ولم يكن مجرد عالم بالشعر راوية له . وإذا كان الأقدم فى أستاذيته والبةَ بن الحباب ، فإن خلفاً الأحمر كان هو الأكثر تأديباً وتخريجاً له .

و«خلف» أول من أحدث السماع بالبصرة، وكان أوسع الرواة روايةً لأشعار البادية . ولقد كان الناس من قبل ، وماهم على شئ أحرصُ منهم على نسيب « العباس بن الأحنف » الشاعر الغَزِل المعاصر ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلفُ الأحمر نسيبَ الأعراب حتى صار زهدهم فى نسيب العباس بقَدْر رغبتهم فى نسيب الأعراب[1] . وكان خلف يقول الشعر فيجيد ، وربما نحله الشعراء المتقدمين فلا يتميز من شعرهم لمشاكلة كلامه كلامَهم . ولكنه انقطع منذ نَسَكَ عن تزوير الكلام، واشتهر بصدق اللسان حتى كان سامعوه لا يبالون اذا روى خبراً أو أنشدهم شعرا ألاّ يسمعوه من صاحبه . وليس أدلّ على عقيدة شعراء العصر بأنه أفرس الناس ببيتِ شعرٍ ، من احتكام بعضهم إليه واستنصاحهم إياه . ولقد شاع فى ذلك قول مروان بن أبى حفصة له : « نشدتك

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

اللهَ يا أبا محرز ، إلا نصحتني في شعري ، فان الناس يُخدعون في أشعارهم » .
كما شاعت قصة ابن مناذر الشاعر وقد حضر مأدبة كان فيها خلف الأحمر وتلميذه الأصمعي . فقال الشاعر لخلف : « يا أبا محرز ! إن يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا ، فهذه أشعارهم مخلّدة . فقِسْ شعري إلى شعرهم واحكمْ فيهما بالحق » . فغضب خلف لهذه الدعوى العَريضة . ثم أخذ صفحةً مملوءةً مَرَقًا فرمى بها عليه ، فقام ابن مناذر مغضبًا ، ولعله هجاه بعدها من جراء ذلك .

ولم يكن خلف الأحمر ضنينًا بشيء من أدبه على تلميذه « الحسن » وإذا كان والبة قد جرّأه على الشعر كما جرأه على السكر وهو غلام ماطرٌ شاربهُ بعدُ ، فإن خَلَفًا في تعصّبه للجزالة وجودة السبك وتنطّسه في النقد ، عمل على كفّ جماحِه وألزمه التريثَ والتثبتَ واستكمالَ أداتِه وتقوية ملكته قبل كل شيء ، وأعلنه بقوله : « لا آذن لك في عمل الشعر إلا أن تحفظ ألفَ مأثورٍ للعرب ، ما بين أرجوزةٍ وقصيدةٍ ومقطوعة » . فعكف الحسن يتلقفها من فيه ومن أفواه سائر الرواة ، وكان سريع الحفظ قوي الذاكرة ، فوعاها في مدة غير مديدة ، وجاءه يقول : « قد حفظتها » . فجعل خلف يستنشده وهو ينشده حتى أتم أكثرَها في عدة أيام ، وكان يؤديها عن ظهر قلبٍ لا يخرم منها حرفا . فلما أظهر الأستاذُ أن ذلك حَسْبُه وأن الذي أدّاه التلميذ فيه مقنعٌ وأيّ مقنع ، عاد الحسنُ يسأله أن يأذن له في نظم الشعر . فإذا الأستاذ قد عاد يقول له : « لا آذن لك إلاّ أن تنسى هذه الألفَ الأرجوزة

كأنك لم تحفظها » وكان الفتى جيدَ الحافظة بعيدَ النسيان ، فاحتجّ متعجبا : « هذا أمرٌ يصعب عليّ ، فإني قد أتقنتُ حفظها » فأصرّ الأستاذ: « لا آذن لك إلا أن تنساها » . فذهب الحسن إلى بعض الدِّيَرَة خالياً يتفرّج وأقام مدةً حتى نسيها . ثم حضر فقال مؤكدا : « قد نسيتها حتى كأنْ لم أكن حفظتُها قط » . عندئذ قال الأستاذ : « الآن إنظم الشعر » . ولقد رُوِي عن شاعرنا أنه قال « ما قلتُ الشعر حتى رويتُ لستين امرأة من العرب منهن الخنساء وليلى ، فما ظنك بالرجال ! »

وهذا المنهج الذى أخذ به الأستاذُ تلميذه ظاهرٌ فيه أنه إنما أراد إلى تخريج شاعر لا راوية . ومن ثمة كان دفعُه إياه إلى التكثّر من المحفوظ ثم إلى تعمد نسيانه ، تحقيقاً للغاية من تطبيع الفتى على قوالب النظم الجيِّد من غير قتلٍ لملكة الشاعر المطبوع فيه .

ولقد جاءت أشعاره وهو فى كنف أستاذه شاهدَ صدقٍ على مبلغ ما كان من تأثره بالأساليب القديمة وشعر الأعراب

ومن هذا القبيل رثاؤه لأسعد بن عصمة المشهور بأبى البيداء الرياحى وهو أعرابى نزل البصرةَ يعلّم فيها الصبيانَ بأجرة وأقام بها عمرَه ، وكان من الفصحاء ينقلُ الرواةُ عنه وروى له « الحسن » شعراً . ومن شعره يتغزل :

قال فيها البليغُ ما قال ذو العِيّ ، وكلٌّ بوصفها منطيقُ
وكذاك العدوُّ لم يَعْدُ أن قال جميلاً — كما يقول الصديقُ

وقد أتتْ مرثية « الحسن » فيه — كما هو المرتقَبُ لذلك الحين منه —

متوعرةً ، عليها جفوةُ الأعراب وخشونةُ الجاهلية وعنجهيةُ البادية ، كثيرةَ الغريب ، حوشيةَ اللغة . ومطلعها :

هل مخطئٌ حتفَه عفرٌ بشاهقةٍ رعى بأَخْيافهـا شثًّا وطبّاقا

إلى أن قال :

زار الحِمَـامُ أبا البيداء مخترمًا ولم يغادرْ له فى الناس مطراقا[1]

ومن طريف ما ذُكِر أن الأستاذ الأحمر قال ذات يوم لتلميذه الحسن ،ولعلها طريقة استحدثها لتخريجه : « إرثنى وأنا حىّ حتى أسمع » . فلم يُمهل الحَسنُ أن جاء بمرثيـة لم يملك السامعون لها إلا استجادتها ، ولكنهم تعالّوا وقالوا له إنْ كنتَ قلتَها فقلْ فى نحوها . فاعتزل وعمل فيه أخرى . فلما أنشدها وقعتْ موقعَ سابقتها . فقال أستاذُه: « أحسنتَ والله » . فقال الفتى مازحا : « يا أبا محرز ! مُتْ ، ولك عنـدى خيرٌ منها » . فقال : « كأنك قصَّرتَ ؟ » . قال الفتى : « لا ، ولكن أين باعثُ الحزن ! » . ولما لم يكن سبيلٌ إلى إرجاء الأستاذ حكمَه حتى يرى ما يقال فيه بعد موته فقد صدع بحكمه يومئذ فقال : « يا بنىّ ! إن شعرك فوق سنّك . ولئن عشتَ ، لتكونن رئيساً فى الشعر » .

وأما المرثيتان ، فكلاهما من ذلك الطراز القديم . وإحداهما رجزٌ ومطلعها

لو كان حىٌّ وائلاً من التلَف لوَألتْ شغواء فى أعلى شعف

والأخرى على النسق نفسه وعلى القافية ذاتها إلا أنها ليست رجزاً وهى

(١) نظيرا

مثبتةٌ فى ديوانه كأختها ، إلا أنه فى هـذه وتلك أبياتٌ لابد من إيرادها .
وهى قوله فى الأولى :

أودى جِماعُ العلمِ إذ أودى خَلَفْ مَنْ لا يُعَدُّ العلمُ إلا ما عَرَفْ
قَلَيْذَمٌ من العياليم الخُسُفْ فكلما نشاء منه نَغترِفْ
روايةً لاتُجتنى من الصحف

ومثله فى القصيدة الثانية :

لما رأيتُ المنونَ آخذةً كلَّ شديد وكلَّ ذى ضَعَفِ
بِتُّ أعزِّى الفؤاد عن خلفٍ وبات دمعى إلَّا يَفِضْ يَكِفِ
أنسى الرزايا مَيْتٌ فُجِعتُ به أمسى رهينَ التراب فى جَدَف
كانَ يُسَنِّى بِرِفْقِهِ غَلِقاً فى غير عىٍّ منه ولا عنف
يجوب عنك التى عَشِيتَ بها من قَبْلُ حتى يَشْفيك فى لطف
ولا يعمِّى معنى الكلام ، ولا يكون إنشادُه من الصحف
وكان ممن مضى لنا خلفاً فليس منه إذ بان من خَلَف

وهذه الأبيات من المرثيتين أوردناها لأنها فوق بلاغتها بليغة الدلالة على مكان خلف من شاعرنا الناشئ . ولقد كان التلميذ يكثر من ذكر أستاذه ويفاخر به . ولم يزل يقول فيه « جَمَعَ علمَ الناس وفَهِمَهُ » . وكان خلف — كما تقدم — له حِذْقٌ بالشعر وطبقةٌ فيه ، وقد اجتمع له ديوان شعر حمله عنه « الحسن » .

كذلك كان التلميذ أثيراً عند أستاذه ، حتى قيل على أكثر من لسانٍ أنه كان من أميل الخلق إلى « الحسن » وأنه يودّه أكثر من غيره من الشعراء . ولما كان لخلف ولاء فى الأشاعرة وكان أحدَ عمال اليمن وكان عصبياً ، فقد استدعى « الحسن » يومًا وقال له : « أنتَ من اليمن ، فتكنّ باسم مِن أسماء الذّوِين » . والذّوون هم المصدّرةُ أسماؤهم بـ « ذو » من ملوك اليمن . وأحصى « خلفٌ » له أسماءهم وخيّره ، فاختار منها « ذا نواس » . فكنّاه « أبا نواس » . فصارت له كنيةً وغلبت على « أبى على » كنيته الأولى . فهو منذ ذلك الحين إلى يومنا يُعرف بين الناس عوامّهم وخواصّهم « بأبى نواس » .

وغنىٌّ عن البيان أنّ معرفة خلف بموضع أبى نواس فى الأدب هى التى جعلته يدعو الفتى إلى إظهار نسبته الى اليمنية ليؤثرها به وبما سيكون من شأنه ، تعصباً لها

والأنسابُ ما برحت عند العرب موضع مفاخرة . وقد وقع من ذلك للشعراء مادةٌ لهجاء من يريدون هجاءه ، بالتفنيد لدعواه وتهجين نسبه بالحق و بالباطل .

وكان أبو نواس من نسل الموالى، فادّعى فى أول دعوته أنه من ولد عبيد الله بن زيادٍ من بنى تيم اللات . ولكن شاعرنا لم يَهْنأ طويلا بدعوته إذ قيل له إن الرجل الذى تدّعى إليه لا عقب له ، لأنه فُلج ومات عن غيرِ ولدٍ .

فاستحى الدعىُّ ، وتحول عنهم على كُرْهٍ منه وكان يُكبر شأنهم ويراقبهم . وأمضى بعد ذلك صدراً من عمره يخلط فى دعوته . فتارة يدّعى للنزارية وينتسب للفرزدق ، وتارة ينقلب على النزارية ويدّعى لليمنية وأنه من قبيلة « حَكَم » . وكان كلما ادّعى لواحدةٍ هجا الأخرى وأقذع فى هجائها حتى هاج عليه شعراء القبائل وتعرض لاستطالة أعدائه عليه وغَمْزهم له تلميحاً ووقوعهم فيه تصريحاً . ومن ذلك هجاء الفضل الرقاشى له :

نبطىٌّ ، فإذا قيـل له : « أنت مولى حَكَمٍ ؟ » قال « أَجَلْ »
هو مولى الله — إذ كان به لاحقاً ، فالله أعلى وأجلّ
واضعاً نسبته حيث اشتهى فاذا ما رابه ريبٌ رَحَلْ

ولقد ظلّ الرقاشى وأبو نواس يتهاجيان فما أمسك واحدٌ منهما عن صاحبه حتى فرّق الموت بينهما .

وكذلك قول سليمان بن أبى سهل بن نوبخت :

ويُنْمَى الى حَكَمٍ دعوةً وما إن له نَسَبٌ فى حَكَمْ

على أن المذكور فى أمر أبى نواس أنه كان بالفعل مولى الحكميّين . وهى قبيلةٌ كبيرةٌ باليمن منها الجراح بن عبد الله الحكمى أمير خراسان وقد كان جد أبى نواس من مواليه . ومن أجل هذا تكرر من الشاعر فخرُه باليمن ومدحُه اليمنيّة ، وإذا كان قد عرض لها بالشتم مرة فذاك من حرّ غيظه وغليان صدره على بعض اليمنيين وبخاصة هاشم بن حُدَيج الكندي ، وقد قال فيه :

وتَحْتَدُّ ، حتى يخاف الجليسُ أَذاكَ عليه من الحدَّهْ
وتختم ذاك بفخرٍ عليه بكندةَ ، فاسْلَخْ على كِنده

ولم يلبث الشاعر أن اعتذر من ذلك أشد العذر ذاكراً أنه يمنيٌّ وأنه لم يجاوز بشتمه اليمنية أن سبَّ نفسه وأهان والدَه :

فأُقسمُ ما جاوزتُ بالشتم والدى وعِرْضى ،وما مزّقتُ غيرَ أديمى

ولا يخلو أن يكون أبو نواس فى بعض دعاويه هذه يتماجن ويعبث على عادته ، ولا سيما أنه كان فى أثناء هذا كله لا ينسى أنه فارسى من جهة أمه وإنْ لم يذكرها خشية أن يُهْجَى بها . فكان يتعاجم فى شعره كما سنرى ، وقد ذهب فى آخر أمره الى هجو العرب أجمعين ، واستنّ فى الشعر غير سنّة شعرائهم الأقدمين .

———

ملتقى التيارات

لقد كان المسلمون فى صدر الإسلام مشغولين بالفتح . ولم تكن شواغلهم الفكرية إلى قبيل زوال الدولة الأموية تعدو المنازعات بين الأسر الطامحة ، والاختلاف فى الإمامة بين أميّة وشيعة أهل البيت والخوارج ، ثم الاجتهاد فى المذاهب الفقهية ، ولم يظهر علم الكلام إلا فى أواخرها .

فلما استقرّ الأمر للعباسيين صرفوا همّهم عن الفتوح إلى توطيد دعائم الإمبراطورية العظيمة التى آلت إليهم ، فلم يُعرف لهم جهادٌ لنشر الدين وتوسيع حوزة الإسلام ، وإنما كانت حروبُهم قمعاً لفتنة فى الداخل أو دفعاً لنكث العهد ونقض الشرط والعدوان من الخارج . وفى ظلال هذه الحال من إيثار السلام ومداومة الاحتجان والاستجمام ، تعدّدت المرافقُ وكثرت الأرزاقُ واستبحر العمران واتسعت الحضارة ، وأقبل معها الناس على الاستمتاع وطلب اللذة ، كما أقبلوا بعقولهم على تحرّى ألوان المعرفة والتطلّع إلى بعيدها واستطراف غريبها ، فيما نقله المترجمون بأمر الخليفة أبى جعفر المنصور من الكتب القديمة عن اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية فى المنطقيات والرياضيات والطب والنجوم

وكان من شأن نصرة الفرس للدعوة العباسية أن أحلّهم خلفاء بنى العباس المحلّ الرفيع وردُّوا عليهم اعتبارَهم . لقد أُديل للفرس فى يوم الزاب من يوم القادسية ، فهم اليوم كفاء والعرب لا سيّد ولا مسود ، عفّى الانقلابُ العظيم على الفوارق ، فزالت من أمامهم العوائق وارتقوا إلى أسنى المناصب فى الدولة ، واتخذ الخلفاء من الفرس كتّاباً ووزراء ، ومن اليهود والنصارى تراجمة وأطباء ، وانفسحت لهم أجمعين مذاهبُ القول والعمل . ولا شك فى أن السياسة الجديدة التى أخذت بها الدولة العباسية فى المساواة بين رعاياها على اختلاف أجناسهم وأديانهم كانت مشجعاً على امتزاج الحضارات وتزاوج الثقافات ، فأفاد العرب من ذلك خيراً كبيراً ، وكذلك دخل عليهم منه شرٌّ مستطير . فغلبت عليهم الحضارة الفارسية ، وتشاغلوا بالفلسفة اليونانية ، وقبسوا من نَظَرِ أهل الهند ، وأدّاهم هذا كله الى أشياء لم تكن من طبعهم ولا من مألوف عادتهم فى أول أمرهم ، من اصطناع الترف فى الملبس والمأكل والاستهتار فى الشرب ، والمجاهرة بما يستوجب الحد ، ومن التكلف الذى لا بعده كلفٌ بعلم النجوم والتنجيم ، والتفلسف حتى فى الأمور الدينية والعقائد الايمانية

والأمثلة على ذلك فى شعر أبى نواس كثيرة لا سيما شعره بعد زيارته لبغداد . فمن تعاجمه فى شعره وتعصبه للفرس قوله فى صفةِ دنانِ الخمر ومجانى الكروم :

اذا قام فيها الحالبون أتتهم بنجلاء ثقب الجوف درّتها الخمرُ
مسارحُها الغربيُّ من نهر صرصرٍ فقطربُّلٌ فالصالحيّةُ فالعقرُ
تُراثُ أنوشروان كسرى، ولم تكن مواريثَ ما أبقتْ تميمٌ ولا بكرُ

ثم قوله فى صفة الغناء الذى يستحبه على الشراب المعتق :

فاسقنيها وغنّ صو تاً ـ لكَ الخيرُ ـ أعجما
ليس فى نعتِ دمنةٍ لا ولا زجْر أشأما

وقوله يتمنى لو كان الأكاسرة أحياء وكان نديمهم :

فلو رُدَّ فى كسرى بن ساسان روحُه إذنْ لاصطفانى دون كلِّ نديم

ومثلها هذه الأبياتُ الرائعة فى صفة دارٍ من الدور الفارسية القديمة فى ساباط ، وقد شرب فيها الشاعر وصحبهُ بين آثارمن سبقوا من الندماء الغطارفة أبناء فارس ، ذاكراً لأيامهم ، ناظراً إلى الأطلال الناطقة بحضارتهم ، مجدداً بالشرب فيها عهدهم :

ودارِ ندامى عطّلوها وأدلجوا بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ
مساحبُ من جرِّ الزقاقِ على الثرى وأضغاثُ ريحانٍ جنيٌّ ويابس
حبستُ بها صحبي ، فجددتُ عهدَهم وإنى على أمثالِ تلك لحابس
ولم أدرِ منهم غيرَ ما شهدَتْ به ـ بشرقيِّ ساباطَ ـ الديارُ البسابسُ
أقمنا بها يوماً ، ويومين بعده ، ويوماً له يومُ الترحُّلِ خامس
تدار علينا الكأسُ فى عسجديّةٍ حبتْها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى ، وفى جنباتها مهًى تدّريها بالقِسِىِّ الفوارسُ

فللخمر ما زُرّت عليه جيوبُها ولِلماء ما دارتْ عليه القلانس

وكذلك احتفاله بيوم النيروز من الأعياد الفارسية :

يُبا كِرُنا «النَّوْروز» فى غَلَس الدجى بنَوْرٍ على الأغصان كالأنجم الزهرِ
يلوح كأعلام المطارف وَشْيُهُ من الصُّفْر، فوق البيض والخضْر والحمر
اذا قابلتْهُ الشمسُ أوما برأسه إلى الشَّرْب أنْ سُرُّوا ومال من السكر

إسقنا ، إنّ يومَنا « يومُ رام » ولِـ « رامٍ » فضلٌ على الأيامِ
فى رياض رَبْعيّة بكّر النوْ ءُ عليها بمستهلّ الغمام
فتوشّتْ بكلّ نوْرٍ أنيقٍ من فُرَادَى نباتِهِ وتُؤام
فترى الشَّرْبَ كالأهلّةِ فيها يتحسّون خسرويَّ المدام

والنَّيْروز أو النَّوْروز عند الفرس أول يوم من السنة الشمسية عند نزول الشمس أول الحمل ، ومعناه بالفارسية « يومٌ جديد » لأنه يؤذن بمقدم الربيع الذى يردّ على الدنيا شبابَها وجِدّتها وهو عيدهم السنوى يقضونه فى التنزّه والشرب فى الرياض . ويوم رام هو كل يوم حادى وعشرين من كل شهر من شهور الفرس ، يلذّون فيه ويفرحون . وكان أبو نواس يحتفل بأعيادهم ، كما كان يلهج بذكر مناقبهم وتفضيلهم ويحبّ أن يتزيا بزيهم ويُظهر للناس أنه منهم .

ولاشك فى أن الحركة الشعوبية كان لها كبيرُ أثرٍ فى ذلك . فقد كان للعرب افتخارٌ بأنهم خير أمم الأرض قاطبةً ، لِما نشأوا عليه من الاستقلال

والعزة والمنعة فى جزيرتهم ، وللصفات والعادات التى شاعت بينهم من إكرام الضيف ونجدة الضعيف وحفظ الأنساب ، وما كان عليه الأعرابُ من البديهة وسرعة الخاطر وقوة الجنان ، وما اختصوا به لغتهم من صفة البلاغة وحسن البيان ، ثم ما كان من نشأة الإسلام فيهم وانتشاره على أيديهم . وقد ثقلت هذه العصبيةُ المتطرفة من العرب ومايلحق بها من المفاخرة المتنفجة المتكررة . وزادها ثقلا أنهم لم يرتضوا دعوةَ المفكرين المعتدلين إلى التسوية بين المسلمين عامة ، وأنه ليس لعربى على عجمى فضلٌ إلا بالتقوى . فلم يلبث هذا التعنّت أن ثارت عليه ثائرةُ غير العرب من شعوب الامبراطورية الإسلامية فغالوا مثلَ مغالاتهم فى الحطّ من شأن العرب العرباء وتحقيرهم . فراحوا يهجّنون أنسابَهم بشيوع المرأة بين رجالٍ عدةٍ فى جاهليتهم ، ويعدّدون مثالبهم من وأدهم الولد خشية الإملاق ، واعتماد قبائلهم على الغزو والسلب ، ويزرون عليهم جدب الأرض وبداوة العيش، وذهابهم فى المنّ من أجل طعام أطعموه أو معونة بذلوها . وراحوا فى الوقت نفسه يذكرون عظمةَ السلطان عند الرومان ، وحكمة الهند وطبّها ، ومنطق يونان وفلسفتها ، وعلوم مصر وسحرها ، وصناعاتَ الصين وفنونها ، وحضارة فارس وترَفها . وجعلوا العربَ من ذلك أقلّ الأمم شأنا فى كل شىء ، وأضعفها استحقاقاً للتفاخر .

ونحن نرى شاعرنا أبا نواس فى شعره دائم التعريض بالأعراب ، والمقابلة بين حياة البداوة العربية وبين الحضارة الفارسية فى حاضرها وماضيها :

دَعِ الرسمَ الذى دَثَرَا ... يقاسى الريحَ والمطَرَا
ألم تَرَ ما بنى كسرى ... وسابورٌ لمن غبَرا
منازهُ بين دجلة والـ ... ـفرات تفيّأت شجرا
بأرضٍ باعد الرحما ... نُ عنها الطّلْحَ والعُشَرا
ولم يجعل مصايدها ... يرابيعا ولا وَحَرا
ولكن حورَ غزلانٍ ... تراعى بالملا بَقَرا
وإن شئنا حشْنا الطيـ ... ـرَ من حافاتها زُمَرا
وإن قلنا اقتلوا عنكم ... يبا كر شَرْبُهُا الخمرا
فذاكَ العيشُ لا سِيداً ... بقَفْرتها ولا وَبرا

وهذا وصفٌ آخر لبلدة من البلدان المتحضرة التى لا تمتُّ إلى بدو العرب بسببٍ ، وإنما هى من الحواضر الفارسية وطن « بَنى الأحرار[1] » كما شاءت العصبية للفرس أن يسمّوا أنفسهم :

ببلدةٍ لم تصل كلبٌ بها طنباً ... إلى خباء ولا عَبْسٌ وذُبيانُ
ليست لذُهْلٍ ولا شيبانِها وطناً ... لكنها لبنى « الأحرار » أوطانُ
أرضٌ تبنّى بها كسرى دساكرَه ... فما بها من بنى الرعناء إنسانُ

(١) (إن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر فى أنفسهم حتى انهم كانوا يسمون أنفسهم « الأحرار » و « الأبناء » وكانو يعدون سائر الناس عبيداً لهم فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب — وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً — تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الاسلام بالمحاربة فى أوقات شتى) كتاب الفصل لابن حزم ج ٢ ص ٩١

وما بها من هشيم العرب عرْفجةٌ ... ولا بها من غذاء العرب حطبان
لكن بها جُلّنارٌ قد تفرّعه ... آسٌ ، وكلّه وردٌ وسوسان
فإن تنسّمتَ من أرواحها نسماً ... - يوماً - تنسّم فى الخيشوم ريحانُ

وكان مما يبغّضه فى العرب أنهم لا يفتئون يتفاخرون ، إلا يكن من العصبية القومية بينهم و بين غيرهم من الشعوب ، فبينهم و بين أنفسهم . فهم أبداً فى شقاق ونقارٍ من العصبية القَبَلية ، لا يجتمع رجلان من قبيلتين حتى يقوم بينهما الفِخار وينتهى بهم آخر الأمر إلى التعدى والشجار . و يقول أبو نواس إنه من أجل هذا يؤثر صحبة الأعجام ومنادمتهم :

نادمتهم أرتاضُ فى آدابهم ... فالفرس عَدْوى سكرِهم مَحْسومُ
متوقّرين ، كلامهم ما بينهم ... ومزمزمين خَفاؤهم مفهوم
ولِفارسِ الأحرارِ أنفسُ أنفسٍ ... ونخارهم فى عشرةٍ معدوم
وإذا أنادم عصبةً عربيةً ... بدرتْ إلى ذكر الفخار تميمُ
وعَدَتْ إلى قيسٍ وعدّتْ قوسَها، ... سُبيَتْ تميمُ وجَمْعُهم مهزوم !
و بنو الأعاجم لا أُحاذرُ منهمُ ... شرًّا ، فمنطق شَرْبهم مزموم
لا يَبْذَخون على النديم إذا انتشوا ... ولهم إذا العربُ اعتدتْ تسليمُ
وجميعُهم لى - حين أقعد بينهم - ... بتذللٍ وتهيبٍ موسومُ

هذا قليل من كثير من مظاهر نزعة شاعرنا الفارسية ، وستطالعنا ثانيةً عند وصفنا لحياته فى دار السلام ، فحسبنا هذا القدر منها هنا .

وأما إشاراته الدالة على اشتغال أهــل العصر بعلم النجوم فغير قليــلة . ولا غرو فقد كان الخليفــة العباسى الثانى أبو جعفر المنصور أول خليفة قرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم ، وكان معه من المقدّمين فى هذا العلم نوبخت المجوسى المنجّم الذى أسـلم على يديه ، وهو أبو النوبختية الذين اتصــل بهم « أبو نواس » أوثق اتصال . وقد تُرجمت الـكتُب فى الفلك وهيئـاته وأُخرجت إلى الناس فنظروا فيها وتعلّقوا إلى علمها .

وقصيدة شاعرنا فى مدح الوزير الشيخ يحيى بن خالد البرمكى مثالٌ إذا سقناه وحــده فإنه يُغنى عن كل مثال بعــده . قال يصف ممدوحه بالسخاء والشجاعة :

صورةُ المشترى لدى بيت ثور الـ ... ـليل والشمس أنتَ عند انتصابِ
ليس (زاويش) حين سار أمام الحـ ... ـوت والبدر إذ هوى لانصباب
منكَ أسخى بما تَشُحُّ به الأنـ ... ـفسُ عند انتقاص دَرِّ الحلاب
لا وبهرامُ تستقلّ به العقـ ... ـربُ بالليل زائداً فى الحساب
منكَ أمضى لدى الحروب ولا أهـ ... ـول فى العين عند ضرب الرقاب

ويلاحظ أن (زاويش) Zeus لفظٌ يونانى وهو المشترى فى الـكواكب السيّارة ، ثم فى خرافات اليونان الأقدمين كبير الآلهة ورب السموات . وأما (بهرام) فهو المريخ بالفارسية ثم فى الخرافة اليونانية إله الحرب .

ومثل ذلك قوله يصف الخمر بالقدم :

تَخَيَّرَتْ ، والنجوم وقفٌ لم يتمكنْ منها المدارُ

وكان أصحاب الفلك يقولون إنه كان لدوران الفلك ابتداء كان قبله ساكناً.

وفى كلام أبى نواس أيضا إلمامٌ بمبادئ الطبيعيات التى كانت بسبيل الشيوع فى أيامه . فمن ذلك تصرفه فى الكلامْ عن الطبائع الأربع التى هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فى قوله هازلًا يستفتى (أبا عيسى جبريل) فى الخمر :

سألتُ أخى « أبا عيسى » و « جبريلٌ » له عقل

فقلت « الخمر تعجبنى » فقال « كثيرُها قَتْل »

فقلتُ له « فقدّرْ لى » فقال وقوله فصل :

« وجدتُ طبائعَ الإنسا ن أربعةً هى الأصل

فأربعةٌ لأربعةٍ لكل طبيعة رطل »

وقوله هاجياً زهير المغنى :

قُلْ لزهيرٍ إذا اتّكا وشَدَا « أَقْلِلْ أَوَ اكثرْ ، فأنت مهذارُ

سَخُنْتَ من شدة البرودة حـ تى صرتَ عندى كأنك النار

لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج باردٌ حار »

ففى ذلك التفاتٌ إلى ما كان يروى من أقوال أهل الهند أن الشىء إذا زاد فى البرد تحوّل إلى الحرارة بدليل أن الصندل الأبيض إذا أُفرِط فى حكّه عاد حاراً مؤذيا .

وأخيراً يقع القارئ في شعره هنا وهناك على ألفاظ من مصطلح المتفلسفة مثل قوله يصف ما صيره إليه تبريح العشق من النحول والضنى .

تركتَ مِنّى قليــلًا من القليــل أقلّا
يكــاد لا يتجــزّا أقلّ في اللفظ من « لا »

وقد زعموا أن ابراهيم النظّام المعتزلى لما أن سمع ذلك منه قال له : «أنت أشعر الناس فى هذا المعنى . والجزء الذى لا يتجزأ ، منذ دهرنا الأول نخوضُ فيه ، ما خرج فيه لنا من القول ما جمعتَه أنتَ فى بيتٍ واحد » .

ولقد كثر فى الحواضر الإسلامية الشكّاك والدهريون ، ومروّجو التعاليم اليهودية والنصرانية ، والزنادقة من الثنوية وغيرها من مذاهب الفرس ولاسيما المانوية، فكانوا يتصلون بالناشئة يزينون لهم المروق والالحاد ويفسدونهم . ولولا ظهور المتكلمين وقوة المعتزلة وقتئذٍ لكان بلاء الإسلام بهؤلاء أشدّ وأنكى . ومن هؤلاء الدعاة إلى الزندقة فى البصرة عبد الكريم بن أبى العوجاء . وقد تصدَّى له شيخُ المعتزله عمرو بن عبيد فقال له مهدداً متوعداً : « قد بلغنى أنك تخلو بالحدَثِ من أحداثنا فتفسده وتَسْتَنْزِلُهُ وتُدخله فى دينك . فإنْ خرجتَ من مِصْرنا (يعنى البصرة) وإلا قمتُ فيك مقاماً آتى فيه على نفسك » . وكذلك تعاون وإمام المعتزلة واصل بن عطاء على الهتف بالشاعر الأعمى الملحد بشار بن برد حتى نفى من البصرة . فلما رجع إليها عند موت واصل سنة ١٣١ لم يزل عمروٌ به حتى نُفى ثانيةً ، وظل بعيداً عنها إلى

أن مات المعتزلىّ فى أواخر سنة ١٤٣ . ولقد كان من شيوع الزندقة ونشاط دعاتها أن وقف عمرو بن عبيد حياته كلّها على حربها وكثرة المقال لمناهضتها ، ومن مصنفاته كتاب فيه ألفُ مسألةٍ للرد على المانوية . كما أنه صمد من معتزلة الجيل لجدال الزنادقة ومناظرتهم أبو الهذيل محمد ، ولُقّب بالعلّاف لأن داره بالبصرة كانت فى العلافين . وكان للعلاف بصرٌ بالفلسفة اليونانية وكان فى احتجاجاته العقلية لا يخلو من بعض الاعتماد عليها . ولعل فى الأبيات التى هجا بها أبو نواس خصمه شاعر البرامكة أبان بن عبد الحميد اللاحقى صورة لما كان شائعا فى أوهام الناس عن عقائد المانوية فى ذلك العصر :

جالستُ يوماً « أباناً » لادَرّ دَرُّ « أبانِ »
ونحن حَضْرَ رواقِ الأ مــير بالنَّهْرَوان
حتى إذا ما صلاة[1] الأ ولى دَنَتْ لأذانِ
فقـام ثَمَّ به ذو فصاحة وبيانِ
وكلّما قال قُلْنا[2] إلى انقضاء الأذانِ
فقال[3] : « كيف شهدتم بذا ، بغير عيانِ ؟
لا أشهدُ الدهر — حتى تُعاين العينانِ »
فقلتُ : « سُبْحانَ ربى ! » فقال : « سُبْحانَ مانى ! »

---

(١) صلاة الأولى يعنى بها صلاة الصبح (٢) كلما قال المؤذن قولا رددناه بعده
(٣) أى فقال أبان اللاحقى كيف شهدتم بقول المؤذن « أشهد ألا إله إلا الله » ، « أشهد أن محمدا رسول الله » ولستم للأمر شهود عيان

فقلتُ : « عيسى رسولٌ » فقال : « مِن شيطان »
فقلتُ : « موسى نجيُّ الـ مهيمنِ المنّـان »
فقال : « ربك ذو مقـ لةٍ إذاً ولسان ؟
أنفسُـهُ خلَقَتْـه أم مَنْ ؟ » فقمتُ مكانى
عن كافرٍ يتمرّى[1] بالكفر بالرحمـن
يريد أن يتَسوّى بالعصبة المجّـان
بعَجْـردٍ وعُبـادٍ والوالبيِّ[2] الهجـان
وقاسـمٍ ومُطيـعٍ رَيْحانةِ النَّـدْمان

وكانت خراسان كعهدها منبتَ الكثير من الدعوات ومرتعاً لدعاتها . وقد ظهر فيها فى أوائل عهد الخليفة المهدى دعىٌّ من أهل مَرْو يسمى حكيما ، وكان أعور قصيراً مشنوء الخلقة ، وكان لا يسفر عن وجهه بل اتخذ وجهاً من ذهبٍ فتقنّع به لئلا يُرَى ، فلقب بالمقنّع . وكان يدّعى الألوهية فيزعم أن الله خلق آدم وتحوّل فى صورته ولذا قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أَبَى واستكبر فكان من الكافرين ، ثم تحوّل فى صورة نوح وهلم جرّا إلى أن حلّ فى أبى مسلم الخراسانى ومن بعده حلّ فيه . وهو يقول بالتناسخ ، وكانت تعاليمه إباحية فتابعه ضُلّال الناس ، واجتمع إليه خلقٌ

(١) يتمرى بالكفر يتزين به أى يتخذه زينة
(٢) الوالبى هو والبة بن الحباب أستاذ أبى نواس والآخرون حماد عجرد وعبادة وقاسم بن زنقطة ومطيع بن إياس

كثير غلَب على عقولهم بالتمويهات . ولم تتمكن جيوش الخليفة منـه إلا بعد عامين كاملين . وقد أطالوا حصاره وضايقوه واستمالوا معظم أصحابه ، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وأهـله ، فشرب و إياهم السمّ ، وألقى بنفسه فى النار وهو يقول « من أحبّ أن يرتفع معى إلى السماء فليُلقِ نفسَه معى فى هذه النار » . وكان ذلك مما زاد فى افتتان من بقى من أصحابه . و بلغ من شيوع الزندقة فى خراسان وفارس والعراق فى أواخر أيام المهـدى أن ضاق صدر الخليفـة وفارقه صـبرُه واضطرم غيظُه ، فجـدّ فى طلب الزنادقة وولّى أمرَهم « عمر الـكلواذى » ليفرغ لهم و يمعن فى البحث عنهم فى الآفاق لينـكل بهم شرّ تنـكيل ، ولما مات ولّى مكانَه « محمد بن عيسى المعروف بحمدويه » .

و يخلص من هذا جميعه أن حركة الزندقة كانت من الشدة بحيث دعت الى مقاومتها بقوة السيف و بقوة الحجة . وكان المهدى صاحب هـذه الخطة المزدوجة . وفى ذلك يقول المؤرخ المسعودى : « إن المهـدى أمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم و إعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته ، لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون ، ممـا نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية الى العربيـة ، وما صنّف فى ذلك ابنُ أبى العوجاء وحمّاد عَجْرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقونية . فـكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس. وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف

الكتب على الملحدين ممّن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم، وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شُبَه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكّين »

وكان أبو نواس ممن اشتهوا الكلام وجالسوا المتكلمين . ولكنه لم يفد من ذلك ما أفاده غيرُه ، فان هذا العلم إن يكن بإضافته شواهدَ المعقول الى شواهد المنقول قد زاد البعضَ إيماناً على إيمان ، فإن تعرُّضَ مثلِ شاعرنا لهذه الموضوعات مع ما كان عليه من خفة الشباب وقلة التورع وفساد النشأة قد أدّاه الى شئ من الزندقة . ولقد أقرّ على نفسه بهـا فى هجائه لابراهيم النظام المعتزلى :

قولا لإبراهيم قولاً هَتْرا غلبتنى زندقةً وكُفْرا

ولقد استمر الجدال بين القائلين باختيار الإنسان لأفعاله، وحرية إرادته لها وقدرته عليها ، وهم المعروفون بالقَدَرِية ، و بين الذين لا يُثبتون للإنسان فعلا ولا قدرة على الفعل ، و يضيفون ذلك كله الى الله تعالى ، وهم المعروفون بالجبرية . وهو جدالٌ ذو خطرٍ كبير لاتصاله بالعدل الإلهى من حيث التكليف ثم الحساب . ولقد أعيتْ أبا نواس متابعتهم ، فلم يلبث أن وقف من البحث عند حدّ التجربة المادية والمشاهدة الحسية فى قوله :

يا ناظراً فى الدين ما الأمر ؟ لا قَدَرٌ صَحّ ولا جَبْرُ
ما صحّ عندى من جميع الذى يُذكر إلا الموتُ والقبرُ

وحَسْبُ القارئ فى زندقته شهادةُ فيلسوف الشعراء أبى العلاء المعرى إذ يقول فى رسالة الغفران : « ولا أرتاب فى أن دِعْبلاً كانَ على رأى

الحكمىّ (أبى نواس) وطبقته ، والزندقةُ فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة »
وفى موضع آخر منها « وقد اختُلف فى أن أبا نواس ادّعى له التألّه ، وأنه كان يقضى صلوات نهاره فى ليله ، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه »
على أن أبا العلاء على عادته فى التشكك وعدم الجزم يقول فى نفس الرسالة
« وذكر صاحبُ كتاب الورقة جماعةً من الشعراء فى طبقة أبى نواس ومَن قبله ووصَفَهُم بالزندقة . وسرائرُ الناس مغيّبة وإنما يعلم بها علّام الغيوب »
وأيًّا كان الرأى ، فان الواقع أن شاعرنا لم يكرر القول فى هذه الموضوعات ولم يجعل الكلام فيها من أغراض شعره كأبى العلاء ، بل تحرز ما استطاع من أن يذهل فيها عن نفسه عملاً بوصيته لغيره :

مُتْ بداءِ الصَّمت خيـ رٌ لك من داء الكلام
إنما السالمُ مَن أَلـ جمَ فاهُ بلجام

على أنه مع ذلك كان لا يملك لسانَه من الخروج عن حد الأدب والمساس بحرمة الدين وهو فى حالة سكر أو فى سياق مجون .

ومن ذلك ما يروونه من مداعباته للشيخ عبد الواحد بن زياد أستاذ الحديث بالبصرة ، إذ أقبل ذات يوم الى مجلسه وقد كثر عليه أصحابُ الأحاديث ليسألوه عنها . فقال لهم : « ليسأل كلٌّ رجلٍ منكم عن ثلاثة أحاديث مهمة وليمض » . ففعلِ الناسُ ذلك ، حتى انتهى الى أبى نواس ، فقال : « سَلْ يافتى » فقعد بين يديه وأنشأ يقول :

ولقد كنا روينـــــا عن سعيدٍ عن قتـــاده
عن زرارة بن أوفى أَنَّ سعد بن عبـــاده
قال : « مَنْ مات محبًّا فـله أجرُ الشهاده »
أترى ذاك صواباً نَتّبعْ منـــه سَدَادَه ؟

فالتفت إليه الشيخ مغضباً وقال: « اغربْ عني ياخبيث، والله لا أُحدّثك بعد ذلك ، ولا أعرف وجهك » . فقال أبو نواس كالمحتجّ: « والله لا أتيتُ مجلسَك وأنت تردّ الصحيحَ من الأحاديث »

وعلى هذا النّسَق أخبار أبي نواس كلها حين يُفرط المجونُ عليه . وكذلك أشعارُه حين تُنازعه نفسُه الآثمة إلى الخمر، وتدفعه شهوتُه الفاسدة الى الاستهتار باللذات :

ألم ترَنى أبحتُ اللهوَ نفسى ودينى ، واعتكفت على المعاصى
كأنى لا أعود الى معادٍ ولا أخشى هنالك من قصاص

وكذلك قوله مجادلاً :

وملحّة باللوم تحسب أننى بالجهـل أُوثر صحبـةَ الشُّطّار
بكرتْ علىّ تلومنى فأجبتها « إنى لأعرف مذهب الأبرار
فدعى الملامَ فقد أطعتُ غوايتى وصرفتُ معرفتى الى الإنكار
ورأيتُ إتيانى اللذاذةَ والهوى وتعجّلى من طيب هذى الدار
أحرى وأحزمَ من تنظّر آجلٍ عِلْمى به رَجْمٌ من الأخبار
ما جاءنا أحدٌ يخبّر أنه فى جنةٍ مَنْ مات أوفى نار »

ولقد كان الجمّاز عند شاعرنا فأسمعه هـذه الأبيات ، فلما بلغ الى البيت الأخير ، قال له الجماز : « ياهـذا ، إن لك أعداء ، وهم ينتظرون مثل هذه السقطات ، فاتق الله فى نفسك ، ودع الإفراط فى المجون ، واكتمها » .
فقال أبو نواس : « لا والله ، لا أكتمها خوفاً . وإن قُضى شيء كان » .
فنمى الخبر الى الوزير الفضل بن الربيع ثم الى الخليفة الرشيد ، فما كان بعد هذا إلا أسبوع حتى حُبس .

بيد أن أبا نواس مع ما كان يلقاه كل حين من التعزير والحبس والتخويف ما برح طوال حياته ينشد من أمثال ذلك الكثير متى نال منه السكر وغلبه الطرب وطفح على قلبه ، مثل قوله :

اسقنيها ملأً وفَا لا أُريد المنصَّفا
وضَعِ الزقَّ جانباً ومع الزقّ مصحفا
واحْسُ من ذا ثلاثةً واتلُ من ذاك أحرفا
خَيْرُ هذا ، بِشرِّ ذا ، فإذا اللهُ قد عفا

وهذا كله لا يجب أن نأخذه على الشاعر مأخذ الجد ، فلقد عاش الرجل ومات صاحب لهو . وقد أُلقى أبو نواس فى سجن الزنادقة للمرة الأولى وهو شاب لم يبلغ العشرين من عمره ، فلقى فيه حماد عَجْرد فقال فى وصفه : « كنتُ أتوهم أن حماد عجرد إنما يُرمى بالزندقة لمجونه فى شعره ، فاذا حماد عجرد إمامٌ من أئمتهم ، وإذا له شعرٌ مزاوجٌ بيتين بيتين يقرءون به فى

صلاتهم » . ولا شك عندنا فى أن القارئ لهذا الحديث يستشعر منه استنكار الفتى ونفوره حين ظهر له أن زندقة حماد مجرد حقيقة لا لهو . وأكبر الظن أن أبا نواس لم يكن يتزندق عن عقيدة ، وإنما كان يظهر الزندقة تظرّفاً . وليس هو فى ذلك نسيجَ وحده بل مثال من أمثـلةٍ كثيرة العدد على روح العصر . وليس أدلّ على ذلك من قول معاصره الشاعر ابن مناذر فى محمد ابن زياد :

يا بن زيادٍ ، يا أبا جعفر ! أظهرتَ ديناً غير ما تُخْفِى
مُزَنْدَقُ الظاهرِ باللفظِ فى باطنِ إسلامِ فتًى عَفٍّ
لستَ بزنديقٍ ، ولـكنما أردتَ أنْ تُوسَم بالظّرْف

الحب الأول والأخير

كل جنس مدفوع إلى الجنس الآخر بدافع من تلك الحاجة الطبيعية الآمرة الـتى أودعها خالق النسم كلَّ نسمة لبقاء الحياة وحفظ النوع . وإذا كان أمرٌ من الأمور فى غنية عن البيـان ، فذاك ما للعاطفة الجنسية على الأحياء من سلطان . ولا بدع فهى صاحبة الشأن الأول فى نظام الوجود ، وقد اقترنت منذ القدم بدوافع الإنسان الأولية، ثم لا بست أولى بشعائره الدينية .

فهذه الغريزة عميقةٌ أيما عمق ، وعامةٌ كل العموم ، وهى تشغل حيزا كبيرا من اهتمام الإنسان وإن يكن الكلام فيها قليلا والكتابة عنها أقل

وهى بعدُ مركّبة القوى شتى العناصر ، يشترك فيها كياننا الحسى والعاطفى والروحى . وهذه العوامل متجاوبةٌ فينا متواشجة ، تتحول فيما بينها مؤثّرة متأثرة ، وقد يغلب أحدُها فلا تدوم له الغلبة ، كما أن المغلوب لا يبرح على كل حال حىّ الجذوة كامن القوة

والصبىّ إذا أدرك سن المراهقة ، وشبت فيه العاطفةُ الجنسية وعذّبته، قد

يتلفت كالحيوان المفترس يطلب فريسةً يُشبع بها هذا السعار الجنسي ويرفّه من ضغطه الموبق. ولكن الحاجة الجسدية لا تلبث جسديةً على حالها ، فإن كثافتها لتلطف ، وإن حواشيها لتتلون بألوان الطيف ، وتتسربل أعطافُها بأبراد الخيال ووَشْي الشعر . وذلك إلى أن المرء له إلى كيانه العميق السفلى كيانٌ رفيعٌ علوى ، يقتضى التعاطفَ بين قلب وقلبٍ ، والتوافق بين مزاجٍ ومزاج . وهـذا التجاذب الخفى بين الأرواح مما يهوّن على العشاق تباريح الهوى ولوعة الحرمان ، ويجعـل أنفسهم أطيب ما تكون بالبذل والمفاداة وإنكار الذات .

على أنه لن تفتأ بين هـذا الأفق السماوى وذلك القرار الأرضى صلة غير مقطوعة ، كالزهرة أصولُها مطمورةٌ فى حضيض التربة ، وكالتربة يتحلل من عناصرها الغليظة ما تزكو به الزهرةَ .

فالشهوة هى حاجة الحس ، ويعرف صاحبها الشبع فى كل مرة كما يعرف الجائع الامتلاءَ بعد كل وجبة . فإذا ما ترقى بها الإنسان إلى الحب كان شوقه دائما ، فليس هو بالذى تشبع نهمته وتُنقع غُلّته ، بل لعله مع القرب أبقى شوقاً وأشدّ هياما على حد قول ابن الرومى :

أعانقها ــ والنفس بعدُ مشوقةٌ إليها ــ وهل بعد العناق تَدانِ !
وألثم فاها ، كى تزول حرارتى فيشتد ما ألقى من الهيمان
وما كان مقدار الذى بى من الجوى ليشفيَه ما ترشف الشفتان

كأن فؤادى ليس يَشفى غليلَه   سوى أن يرى الروحين تمتزجان

وهذه الصورة أصح مثال على الحب فى حده الطبيعىّ السليم . فليس فيه إنكار الزهّاد للجسد وانصرافهم عن ظاهر الحس ، وفيه مع هذا شوق المتصوفة إلىّ ما وراء الحسّ وحنينهم إلى الاتّحاد بالروح والفناء فى المحبوب .

وما كان شاعرنا أبو نواس على استهتاره كسائر الخلعاء المجّان فى اللهو والشراب ومصادقة الفتيان ، بالذى يخرج وقد بلغ مبالغ الرجال عما للحب الطبيعى بين الجنسين من غلبة على الحسّ وسلطان على النفس .

فاتفق له أن كان فى المربد جالسا مع شباب من آل ثقيف يتنزهون وهو يُنشدهم من أشعاره ، إذ مرت بهم جاريةٌ أُفرغت فى قالب الجمال ، سوية الخلقة بديعة التقطيع ، ميساء معتدلة القوام .

فوق القصيرة ، والطويلةُ فوقها   دون السمين ، ودونها المهزولُ

وقد أبرزت عن وجهٍ وضّاح ، أزهر اللون ، رفّاف البشرة ، حلو الملامح ، عبقرىّ المعنى . فجعل ينظر مأخوذاً إلى ذلك المنظر الرائع والحسن البارع وهى ماضيةٌ فى طريقها لا تلتفت ، قاصرة الطّرْف ، مسبلة الأهداب . وما زال يُتبعها نظرَه إلى أن غابت عنه . فقال له أصحابه : « خرجتَ عن حدِّك الذى كنت تنتسب إليه يا أبا نواس » يشيرون إلى ما عرف عنه من الغزل بالمذكر . فسكت لحظةً لا يجيب ، ثم أنشأ يقول :

إنى صرفتُ الهوى إلى قمرٍ   لا يتحدّى العيونَ بالنظرِ

إذا تأمّلتَــه تعاظمكَ الـ ــإقرارُ فى أنه من البشر
ثم يعود الإنــكارُ معرفةً منك إذا قستَه إلى الصُّوَر
مباحةٌ ساحةُ القلوب له يأخذ منهـا أطايبَ الثمر

و بقى بينهم ساهماً سحابةَ نهاره ، حتى إذا أظلّ المساء استعجل العودةَ إلى بيته ليخلو إلى نفسه . لقد انطبعت هــذه الصورةُ العابرة فى قلبه بخطوط من نورٍ ونار ، ولن تفارقه فى ليلٍ ولا فى نهار . وهيهات بعد اليوم أن يطيب له نومٌ أو يقرّ له بال . إن أبا نواس اليوم غير أبى نواس الأمس . هذا الرجل الواقعى المستغرق فى الحسّ ، والماجن المستهلك فى اللهو والسكر ، والخلىّ الذى لم يعرف الحبّ ، قد شُغف اليومَ حبًّا ، وأصبح بخيال هــذه المرأة مستهاماً صبًّا . فليس شىء من مفاتن الحياة يشغله عن التفـكير فيها ، وهو ينظم الأشعار تلو الأشعار ليناجيها ، يشكو وجدَه بها وحنينَه إليها وهو لا يعرفها . ولقد طال سؤالُ أبى نواس عنها وتنسّمُه لأخبارها وجلية أمرها ، فلم يقع بعد اليوم الذى رآها فيه على خبرٍ منها . فما أحالَهُ ذلك عن قصده ولا حبس من عنانه وصرفه عن هواه . وكان يقول لمن يلحاه فى لَجَج حبه ودأبه فى طلبه :

كما لا ينقضى الأرَبُ كذا لا يفتُر الطلبُ

وتناقل أهلُ البصرة حال شاعرنا فى حبها وأقواله فيها وأكثروا ذكره فى كل محفل ومجمع .

ولم تــكن هذه المعشوقة المجهولة إلا « جِناناً » جارية آل عبد الوهاب

الثقفى ، وقد اتفقت الأقوال على أنها كانت مقدودةً حلوةً بديعةَ الحسن ، أديبةً ظريفةً عاقلةً ، تعرف الأخبار وتروى الأشعار . كما اتفقت الأقوال على أن أبا نواس لم يصدق فى حب امرأةٍ غيرها .

ولقد ذكرتْهُ لها نساءٌ من صواحبها ، وزيّنّ لها أن يخرجن فيعبثن به ويمازحنه . فخرجن يوماً وأبو نواس على غفلة من ذلك حتى وافينه . فلما رآها كاد عقله يذهب ، وتحيّر ، وأقبل وأدبر ، فدنت منهن واحدةٌ إليه .

فقالت — « يا فتى ، أنت أبو نواس ؟ » .

فقال لها متلهفاً — « نعم ، أنا المعنَّى بمن لا ترثى لشكايتى » .

فقالت كالمتهكمة — « بالله أنت عاشق ؟ » .

فلم يمهلها وبادر مؤكدا — « إى والله ! » .

فتضاحكت — « لمن ؟ » .

فأطرق مرددا — « لمن لا يعلم ما بى ، ولا أعلم من هو » .

فقالت فى خبثٍ — « فاجعلنى رسولًا إليه ، فلعلّ الله أن يمنّ علىّ وعليك » . فأقبل عليها يقول : « هى والله التى معك » وأومأ إلى جنان .

فانصرفت عنه إلى جنان وهى تضحك . فأعلمَتْها بما دار بينها وبينه . فأنكرتْ ذلك عليها وقالت : « مثل هذا الكاب تُطمعينه فىّ » وتولّت مغضبة :

واتّبعها أبو نواس من بعيد حتى عرف منزلها ومولاها ، وسأل عن اسمها .

فأخبروه عنها . وعاد الشاعر راضياً عن يومه ، قانعاً بما وصل إلى علمه ، وهو يترنّم « تبدّت لنا كالبدر وَسْط الكواكب » . ولقد وصف فيما بعد هذه الواقعة ، وصوّر لنا إقبال هؤلاء الجوارى من ناحية رصافة البصرة فى أتم زينة ، يحففن بجنان كالتماثيل الحسان ، وما كان من انصرافها مغضبة :

ومضمّخات بالعبـ ـير نزلن من غُرَف الجِنانِ
راضعتُهنّ من الصبا كأساً عقدن بها لسانى
أقبلن من باب الرصا فة كالتماثيل الحسان
يحففن أحورَ كالغزا ل أُمِرّ إمرارَ العنان
يمشى بردفٍ كالنقا يختال تحت قضيب بانِ
فاذا انجلَيتِ فجاملى كيلا أموت على المكان

واحتال الشاعر على التعرّف بآل عبد الوهاب الثقفى ، فعاشرهم ونادمهم توصّلًا لجنان . ولعل ذلك عن طريق صداقته لابن مناذر الشاعر الذى كانت المودة بينه و بين عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى مضرب المثل ، وكان أحدهما لا يطيب بفراق صاحبه ، حتى قيل فى ذلك أنهما كانا يسمران أحياناً إلى الصبح ، فاذا انصرف عبد المجيد شيّعه ابن مناذر إلى منزله ، فاذا بلغه وانصرف ابن مناذر شيعه عبد المجيد .

ولقد تكلف أبو نواس ما تكلف من كتمان هواه بجنان ، ثم طفح به الوجد وغلب عليه الهيمان ، فضاق صدره ، وصار كالمغلوب على أمره يؤوده أن يمسك على ما فى نفسه :

لَأُبيحنّ حرمةَ الـكتمان راحةُ المستهام فى الاعلانِ

قد تصبّرتُ بالسكوت وبالإط راق جهدى فنمّت العينان

تركتنى الوشاةُ نصب المشيري ن وأحدوثةً بكل مكان

ما أرى خاليين للسرّ إلا قُلْتُ ما يخلوان إلا لشانى

ثم أنشأ يشبّب باسمها ويُظهره حتى عُرف بها واشتهر بحبها . ومن إشاراته إلى اسم « جنان » وصفتها قولُه :

لمـا تـكشَّف عنى أننى كلِفٌ كَشَفْتُ أيضا لهم عمن به الـكلَفُ

جيمٌ وَجَدْتُ لها نونيْن ، بينهما ـ لمن تهَجَّى اسمها أو خَطَّهُ ـ ألِفُ

يضمه من ثقيفٍ بعضُ دورهمُ ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف

واتفق أن تزوجت عمّارة بنت عبد الوهاب الثقفى برجل من ثقيف يدعى محمد بنْ خالد(١) فصارت إليها جنان وصيفة لها . وكانت مولاة جنان موسرة ، وعلى حظ وافر من الجمال كأخيها عبد المجيد الذى قيل إنه كان أحسن الناس وجها وأدبا وملبسا . فلم تزل تغرر بها امرأةٌ يقال لها « سرور » حتى ارتضت الرجلَ وهو أبو أولادٍ خمسة ، ثم هو فوق ذلك لم يكن لها كفؤا ، بالنسبة لجلال قدر أبيها عبد الوهاب وموضعه من العـلم ، وما لأمها « بانة بنت أبى

(١) جاء فى الأغانى فى الصفحة ٧٧ من الجزء ٢٠ أن عمارة تزوجها محمد بن خالد وجاء فى الصفحة ٣ من الجزء ١٨ أن زوجها عبد الرحمن الثقفى . وقد أخذنا بالقول الأول لأنه يطابق ما جاء فى شعر أبى نواس . وأما الذى ورد فى الصفحة ٤ من الجزء ١٨ من أن عمارة امرأة عبد الوهاب فهو خطأ صريح وصحته ابنة عبد الوهاب الثقفى .

العاص الثقفى » من بسطة الثروة ، فضلا على أنه لم يكن هواه فيها وإنما الشره إلى ما فى يدها .

ولقد شاء لمحمد بن خالد حظُّه العاثر أن يكون جارُه أبان اللاحقى الشاعر وأن يكون عدوًّا له ، فنظم فى موضوع زواجه بعمارة قصيدة يهجوه فيها ويحذّرها منه ويحفزها إلى مفارقته :

لما رأيتُ البزَّ والشاره	والفرْشَ قد ضاقت به الحاره
واللوزَ والسكّر يُرْمَى به	من فوق ذى الدار وذى الداره
وأحضروا المُلْهِين لم يتركوا	طبلاً ولا صاحبَ زماره
قلت «لماذا ؟» . قيل «أعجوبةٌ	محمدٌ زُوِّج عمّاره !»
لا عمّر اللهُ بها بيتَه	ولا رأته مُدرِكاً ثاره
ماذا رأت فيه ؟ وماذا رجتْ ؟	وَهْيَ من النسوان مختاره
أسودُ كالسفّود يُنسى لدى الـ	تنّور ، بل مِحراك قيّاره
يُجرى على أولاده خمسةً	أرغفةً كالريش طيّاره
وأهلُه فى الأرض ــ من خوفه	إن أفرطوا فى الأكل ــ سيّاره
ويحكِ ! فِرّى واعصِى ذاك بى	فهذه أُختكِ فرّاره
إذا غفا بالليل فاستيقظى	ثم اطفرى إنك طفّاره

ويقال إنه لما انتهى الأمر بأن بلغت قصيدته هذه عمارة ، فعلت فى نفسها ، وكان من أثرها ما كان بعد ذلك من هربها ، فحرم من جهتها مالًا عظيما .

وكان زوج عمارة هذا بخيلا شديد البخل ، حريصا غاية الحرص ، فيه أثرة وجفاء طبع . وكان منقطع السبب بأهـل الأدب ، فليس لأبى نواس أو غـيره من الشعراء اتصالٌ ببابه أو سبيلٌ إلى قلبه . فلاجرم يستولى على عاشق جنان عارضُ اليأس وشعورُ القهر :

رأيت هواى سِيرتُهُ الوجيفُ وتَحْزُبُنى إذا اعترضتْ ثقيفُ
فإن آتى ـ وذلك بعد كدٍ ـ فدارُ « محمـد » ثم الوقوف

ولقد زاد محمدٌ أن عمد إلى بسط لسانه فى أبى نواس والتسميع بمثالبه وعوراته . فلم يسع العاشق إلا السكوت والإغضاء كرامةً لهوى جاريته الحسناء :

سأترك « خالداً » لهوى جنانٍ وإن جـلّ الذى عنه أتانى
فقلْ من بعد ذا ما شئتَ ، أو زِدْ فقد أمسيتَ منى فى أمانِ
لقد أغلقتَ بابَك دون ظبىٍ ختمتَ بمقلتيـه على لسانى

ثم إن هـذه المبالغة من مولى جنان فى سترها والغيرة عليها غيرةً لم تؤثر عنه على زوجه ، ألقت فى روع الشاعر أن مولاها إنما يفعل ذلك لأنه يهواها :

مولى جنـان وإن أبدى تجلُّده يهوى جنـان فيرجوها ويخشاها
مولاتُه هى « بالمعنى » وحقّ لها ، والناس يدعونه « باللفظ » مولاها

وكانت جنان مع هذا التضييق عليها لا تخلو من الغدوّ والرواح لحاجاتها، وغشيان دور جاراتها وصواحبها للزيارة . وكان أبو نواس راصـداً لها حيثما

ذهبت . فاذا شهدت عرساً لم يزل جالساً حتى تنصرف منه فيراها فى ذهابها ومنصرَفها . وكان لا يراها إلا امتقع لونُه ووثب قلبُه فى صدره لما يبدو من جمالها فى الحلى والحلل حتى لكأنها العروس :

شهدتْ جلوةَ العروس جنانٌ فاستمالت بحسنها النظّاره
حسبوها العروسَ حين رأوها فإليها دون العروس الإشاره
قال أهلُ العروس حين رأوْها : « ما دهانا بها سوى عمّاره »

ويصوّر لنا أبو نواس فى هذه الأبيات ما هو ملحوظٌ الى أيامنا من حرص النساء على عرض جمالهن فى الأعراس كأنما يعارضن العروس ويغايرنها. ولقد صوّر الوهمُ له فى هذا الشأن أن أهل العروس كرهوا ذلك أشد الكره من جنان ، ووجدوا منه على مولاتها وراحوا يعدونه كيداً من جهتها وعمداً . ويروى أن جنان حين سمعت أبياته قالت : « كأنه كان معنا ، هكذا كانت والله الصفةُ »

وكان لا يدع فرصةً لرؤيتها إلا اغتنمها حتى فى المآتم . فلما مات بعض آل عبد الوهاب الثقفى ، أشرف أبو نواس من دارٍ على منزل الثقفيين وعندهم المأتم ، ليرى جنانا . وكانت جنان واقفة مع النساء تلطم وفى يدها خضاب ، فلم يَعْنِه من هذا المنظر الفاجع الأليم إلا النظر إليها سافرةَ الوجه كالبدر ، واستملاح هذا المتناثر المتحدّر من دموعها كاللؤلؤ الرطب من عينين نجلاوين لها كعيون النرجس ، واستظراف بنانها المخضوب كالعنّاب يواقع وهى تلتدم خدين كالورد :

ياقمراً أبرزه مأتمٌ يندب شجواً بين أتراب
يبكى فيُذرى الدُّرَّ من نرجسٍ ويلطم الوردَ بعنّاب
لا تبكِ ميتاً حلَّ فى حفرةٍ وابكِ قتيلاً لك بالباب

وكانت جنان على الدوام حسنة الزينة أنيقة الهندام ، سواء أكان خروجها الى عرس أو مأتم ، وقد لقيها أبو نواس مرةً خارجةً الى بعض المآتم بالبصرة وعليها قناعُ وَشْيٍ رقيق . فاتبعها واحتال على شهود المأتم . فلما حسرت فى المأتم عن وجهها ذهل الشاعر ـ كدأبه ـ من حسنها ، وخيّل إليه أن المأتم كله قد ذهل مثل ذهوله . وقال فيها :

يامُنسىَ المأتم أشجانَهم لما أتاهم فى المعزِّينا
حلّتْ قناعَ الوَشْيِ عن صورةٍ ألبسها اللهُ التحاسينا
فاستَفْتَنَتْهُنَّ بتمثالها فهنَّ للتكليف يبكينا
حقٌّ لذاك الوجه أن يَزْدَهى عن حزنه مَنْ كان محزونا

واشتد وجدُ أبى نواس بها، فاشتد فى طلبها ، وصارت شغله الشاغل لا شغل له غيرها ، فهو كل يوم على طريقها ينظر إليها بمجامع عينيه إذا أقبلت ويتبعها أينما توجهت ، ويقعد لها حتى انصرافها . وكان قد يشرب أحياناً أقداحاً من النبيذ ليشدّ قلبه ويسكّن ما به ، فلا يجسر مع ذلك على أن يتعرض لها بالكلام

ولقد شكت جنان يوماً إلى مولاها، فشكاه إلى بعض إخوانه وسبّه عندهم

ثم أشفق من هجو الشاعر له . فلما اتصل ذلك بالشاعر قال على مذهبه فى هذه الفترة فى الملاينة والمسالمة .

مَنْ سَبَّنى من ثقيفٍ فاننى لن أسُبَّه
أبحتُ عِرضى ثقيفاً ولطمَ خدى وضربَه
وكيف يُنكَر هـذا وفيهمو لى أحِبَّه ؟
لأُوسِعَنّ بحـلمى عبدَ الحبيب وكلبَه
ولا أكون كمن لم يُوسِعْ لمولاه قلبَه
فقام يدعو عليـه ويجعل اللهَ حَسْبَه !!

وعمد أبو نواس إلى رسولٍ أوفدها مرةً إليها ، فقالت جنان لها منكرةً : « واضيعتاه ! لم يبق لى غير أن أحبّ هـذا الـكلب ؟ » وذكرته بالتقبيح والتهجين . فجاءته الرسول متغيرة ، فأبلغته ما قالت جنان . فقال حينئذ :

كَبَرَ الحِبُّ نشاطى ولقد كنتُ نشيطا
جاءنى عنـه كلامٌ زادنى فيـه قنوطا
« واضياعاهُ ، أمثلى يُرْتجَى فيه خليطا ؟ »
لو أردتَ الوصلَ لم تَجْ لبْ من الفخر شروطا
قد رأينا عرَبيَّاتٍ يُوَاصِلْنَ نبيطا

وكان أبو نواس على شغفه بجنان وعلى صدق حبه لها ، دون من كان يشبّب بهن من النساء ، غير مجدود منها . وكانت كلما ذُكر اسمُه عندها سبّته

وقالت : « فعل الله بالمخنّث الكاذب فى حبه كيت وكيت » . فكان يقابل هذه الإساءات بأقوال له، منها :

جنان تسبّني ـ ذُكِرَتْ بخيرٍ ـ وتزعم أننى مَذِقٌ خنيثُ
وأنّ مودتى كَذِبٌ ومينٌ وأنى للذى أهوَى بثوثُ
ولى قلبٌ ينازعنى إليهـــا وشوقٌ بين أضلاعى حثيثُ

وقوله :

أتانى عنكِ سبُّكِ لى فسُبّى أليس جَرَى بفيكِ اسمى ! فحسبى
تَشابهت الظنونُ عليك فى ذا ، وعِلْمُ الغيب فيه عنــد ربى

وزالت عن هـذا الماجن وقاحتُه واستطالتُه ، فاستخذى وركبه الحبُّ بالذلة وعلّمه الخضوع والخنوع . كما زالت عنه شهوتُه للحياة وافتتانُه بالدنيا ، فهو لزهدِ جنان فيــه قد زهد فى ملاذّ الدنيا وكان لا يصبر عنها ، وهو لخلو حياته منها قد كره الحياةَ ولم تبق به حاجة إليها .

زهدتْ جنــانُ فى الذى رغبتْ إليها فيــه نفسى
فزهدتُ فى الدنيــا وصا رتْ مُنْيتى فى زَوْرِ رمسى
وطويتُ عينى أنْ ترا نى عينُها ، وأَمَتُّ جِرْسى
كيــــلا يروِّع ذلك الـ ـوجهَ المليحَ سماعُ حسِّى

وطال على أبى نواس البلاء حتى لزمه الأرقُ وكاد يُجنُّ من الحب :

تناومتُ جهدى فلم أرقُدِ ونام الخلىّ ولم يسهدِ

وأنهض في طرباتٍ تهيـ ـجُ ،وأُلزم طوراً فؤادي يدى

ولقد يهتف به داعى العقل أن يعدل عن هـذا العشق الذى لا مطمع من ورائه وفيه تلف نفسه :

دَعْ جناناً وحبَّهـا عنك إن كنتَ عاقلا
لا تذكِّرْ بنفسِكَ الـ ـموتَ إن كان غافلا
أنت إن لم تمتْ بها الـ ـعامَ لم تَنْجُ قابلا
رُحِمَتْ نفسُك التى ذهبتْ عنك باطلا

ولـكن هيهات أن يعدل عن حبها، إنه كالقضاء لا مفرّ منه ولا نجاء. ولقد علّمه حبُّها أن يتوجه الى الله بالدعاء بعد أن امتنع الصبر وعزّ الرجاء :

أيا مُلين الحـديد لعبـــده داود
ألِنْ فؤاد جنانٍ لعـــاشق معمود
صب حريضٍ مهيضٍ ناءٍ طريدٍ شريد
حرّان يدعو بلَيْلٍ ياللوحيـد الفريد !

وظاهرٌ من هذا كله أن جنان لم تـكن مثلي سائر جوارى العصر ماجنة وَقاح الوجه ، متهتـكة ، بل هى كما وصفنا فتاةٍ عاقلة رَزَان ، عفيفةٌ حَصان خَفِرَةٌ قليلةُ الـكلام ، وذلك كله مع جمالِ المحيّا وحـلاوة الملامح ولطافة التـكوين والقوام وحسن اللبسة والهندام . فالشاعر لا ينى يجمع فى صفتها أنها نزهة طرف وفتنة قلب ، وأنها ممتنعة لا تلين لمريدها ولا تقرّ لما يُصْنَع بها .

وجه جنانٍ سَراةُ بستان مجتمعٌ فيه كلُّ ألوان
مبذولةٌ للعيون زهرته ممنوعة من أنامل الجانى
لستُ أحظى به سوى نظرٍ يَشركُنى فيه كلُّ إنسان

ولقد أشار الشاعر الى أن لها جمالا « غير معربد » فى ختام أبيات له من أمتع وأطبع ما قاله شاعر فى وصف « الجمال » فى أبدع مجاليه وأعجب معانيه، وهو ذلك الجمال الذى لا يزال فى عينك يتجدد ، يُطالعك منه بمحاسن ليست تنفد ، وكأن بعضها ينتهى و بعضها يتوالد ، ثم هو كلما عاوَدْتَ النظر إليه كان بالعود أحمد :

وذات خدٍّ مورّدْ فتّانة المتجرَّدْ
تأمّل الناس فيها محاسناً ليس تنفد
الحسنُ فى كل جزء منها معادٌ مردَّد
فبعضُه فى انتهاء و بعضُه يتولد
وكلما عدتَ فيه يكون بالعود أحمد
فاشرَبْ على وجه بدرٍ ريّان غير معربد

ومضى الشاعر يشبّب بها و يلهج بذكرها، و يشكو فى شعره ما يجد بها وما يلقى فى حبها ، ولا مسألة له إلا عنها ، ولا حديث له إلا حديثها ، حتى عذله الناس فى ذلك :

أمَا يَفْنَى حديثُك عن جنانٍ ولا تُبقى على هذا اللسان ؟
أكلَّ الدهر قلتُ لها وقالت؟ فكم هذا ! أما هذا بفان ؟

ولكنه لم يكن يضيق بعذل العاذلين مستكرهاً له نافراً منه ، بل كان يحمده لهم أحياناً ويستأنس به من الوحشة إليها ، لما يَرِد عليه فى عذلهم من ترديد اسمها والإلمام بذكرها :

إذا ما عاذلى سمّا   كِ قلتُ أعِدْ ، كذا أعِدِ
وشُبْ لى باسمها عَذْلى   وزِدْنى ، ثم زِدْ وزِدِ
نهارى كلَّه وغداً   وبعد غدٍ وبعد غد

وقد كانت جنان كأحرّ الحرائر من النساء تتحرج من قول الشعراء فيها والغزل بها والتصريح باسمها. وقد انتهى الى الشاعر كرهها لذلك، فقال معتذراً:

طَفْلةٌ كالغزال ذات دلالٍ   فتنةٌ فى النقاب والإسفار
أتمنَّى وما بكفِّىَ منها   غيرُ مطْل وغير سوء انتظار
ثم قالت « جهرتَ باسمى فى الشعـ   ـر فهلّا كَنَيتَ فى الأشعار »
قلتُ « إن الهوى إذا كان بالصـ   ـبّ وَهَى قلبُه عن الأسرار
أنا جارٌ لكم قريبٌ ، ولكن   ليس يُغنى لديك حقُّ الجوار »

ثم استخفّه الوجد ولجّ به الحنين واهتاجه الشوقُ إليها ، فصاح صيحتَه :

جنانُ إن جُدْتِ يامُناىَ بما   آملُ لم تقطر السماء دَمَا
وإن تماريتِ أو تمادَيْتِ فى   منعِك أُصبحْ بقَفْرةٍ رِمما
عَلِقتُ مَنْ لو أتى على أنفُسِ الـ   ـباقين والغابرين ما نَدِما

ولقد فعلتْ هذه التوسلات فى نفس جنان واستمالتها ، فصارت أميل لناحيته بعد نبوّها عنه . ولقد مرت به امرأةٌ ممن تداخل الثقفيين ، فسألها

عنها وألحف فى المسألة واستقصى ، فأخبرته الخبر، وانساقت إلى المبالغة والتزيد فيه كلما رأت لهفته على السماع منها مستطارَ القلب مهتزَّ الأوصال من الفرح فقالت : [قد سمعتها تقول لصاحبةٍ لها من غير أن تعلم أنى أسمع : « ويحك ! قد آذانى هذا الفتى وأبرمنى ، وضيق علىّ الطرقَ بحدة نظره وتهتكه . ومن كثرة فعله لذلك قد لهج قلبى بذكره والفكرة فيه حتى رحمته » ثم التفتت فرأتنى فأمسكت عن الكلام] .

وصدّق أبو نواس الخبرَ واعتقده بنصِّه وحرفه ، ولم يرَ فيه أدنى زخرف ، ولا رابه منه قولٌ مصنوع أو زيادة موضوعة . ولما قامت المرأة أنشأ يقول :

يا ذا الذى عن جنانٍ ظلّ يخبرنى ... بالله قُلْ وأَعِدْ ياطيب الخبر
قال: «اشتكتكَ وقالت: ما بُليتُ به! ... أراه مِن حيثما أقبلتُ فى أثرى
ويُعمل الطرف نحوى إن مررتُ به ... حتى يخجّلنى من حدّة النظر
وإن وقفتُ له كيما يكلّمنى ... فى الموضع الخلو لم ينطق من الحصَر
ما زال يفعل بى هذا ويُدمنه ... حتى لقد صار من همى ومن وَطَرى»

واتصلت الرسائل بينهما حيناً . وكان من لهفته يتطلع فى وجه الرسول عند عودته ولا يمهله ، ليسبق باللحظ والتوسم إلى ما يحمل له ، شرًّا أو خيراً ، قبل اللفظ به . ثم إنه كان يوفده وهو كالحاسد له يتمنى لو يكونه ليتملّى ساعةً بالنظر إلى الموفد إليها . ويغلو به الوهم فى ذلك حتى يجد رسوله عند الإياب من لدنها أحلى طلعةً وأجمل نظرة ، فيقول :

إنْ تَشْق عيني بها، فقد سعِدتْ عينُ رسولي وفُزْتُ بالخبَرِ
فكلما جاءني الرسول لها ردّدتُ شوقاً في طرفه نظري
تظهر في طرفه محاسنها قد أثّرتْ فيه أحسنَ الأثر
خُذْ مقلتي يارسول عارية فانظرْ بها واحتكمْ على بصري

ومن شهود هذه الوفادات، والرسل المختلفة بينهما غاديات رائحات، شيخٌ جليلٌ هو الشيخ محمد بن حفص بن عمر التيمي (أبو ابن عائشة) وهو وقتئذٍ يتولى القضاء بالبصرة، وكان منصرفاً عن المسجد فرأى - فيما بين دار أبانٍ ودار حُمران - فتى لَبِقاً، دمثاً، عليه ثيابٌ بيضٌ حسان، وعلى رأسه قلنسوةٌ مضرّبة، واقفاً مع امرأة يكلمها. فدنا الشيخ منه وقال له: «ياهذا إن كانت هذه المرأة منك بسببٍ، فقد عرّضتها للتهمة ووقفتها موقفَ سوء وإن كانت غريبة عنك فحقيقٌ عليك اتقاء الله وألا ترضى لغيرك إلا بما رضيته لنفسك». فالتفت الفتى إلى الشيخ الذي يخاطبه، وقال على الفور في أدب وظرف: «القول ما قلتَ، وأنا قابلٌ نصيحتك وغيرُ عائدٍ إن شاء الله تعالى». فولّى القاضي وجعل في طريقه يفكر في أمر الفتى فلا يدري أيّ شمائله يستحسن، أسرعة جوابه، أم حسن مراجعته له بقلّة الخلاف، أم ظرف لسانه. ثم دخل القاضي في المسجد الجامع وجلس ساعةً للقضاء والنظرِ في المظالم، فلم يشعر إلا برقعة في الرقاع بين يديه وكان الذي جاء بها ابن عائشه ولده. فتناولها، وإذا فيها:

« يقول لك أبو نواس :

إنّ التى أبصرتَها سَحَراً تكلّمنى رسولُ
ليست هى القصدُ الذى يُومى إليه ولا السبيلُ
أدّت إلىَّ رسالةً كادت لها نفسى تسيلُ
من ساحر العينين يجـ ـذب خصرَه ردفٌ ثقيل
متقلّدٌ قوسَ الصِبا يَرمى وليسَ له رسيل
فلَوَانّ أُذْنَك بيننا حتى تَسَمَّعَ ما نقول
لرأيتَ ما استقبحتَه مِنْ أَمْرنا وهو الجميل
وعلمتَ أنى فى نعيم لا يحول ولا يزول »

فضحك الشيخ حين قرأها ، وقال لابنِهِ : « قُلْ له إنى لا أتعرّض للشعراء » .

أما ذلك « النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول » فذلك أن جنان أرسلت تسمح له بأن يزورها . ولقد وقعت هذه الزيارة وتكررت ، وكانت زَوْراتُه لها نهاراً كما كانت قصاراً . وظهرت فيها إحدى معجزات المرأة ، بل أكبر معجزاتها بوصفها امرأة ـ لا مجرد أنثى . فاذا بالماجن الفاسق قد صار عاشقاً على طراز المتيَّمين العذريين ، يبرأ من الريبة مثلهم ، ويلقى الحبيب وليس له مثلهم فى الحب من وطرٍ إلا الحديث والنظر . على أن جنان لم تلبث فى تحرجها أن وجّهت إليه « قد شهَرتنى فاقطعْ زيارتك عنى أياماً لينقطع بعضُ القالة » . ففعل محزونا ، وكتب إليها يقول :

إنا اهتجرنا للناس إذ فطنوا　　وبيننا ـ حين نلتقى ـ حَسَنُ
فليس يُقذى عيناً معاينةٌ　　له ، وما إن تمجُّهُ أذن
ويحَ ثقيفٍ ماذا يضرُّهمُ　　إن كان لى فى ديارهم سكن
أُرِيبُ ما بيننا الحديثُ ، فإن　　زدنا فزيدوا ، وما لذا ثمن

وقنع بالرسائل يدسّها إليها ويحتال على إبلاغها لها ، فكان يبالغ فى تدبيجها وتهذيبها ويكثرَ من التأنق فى عبارتها ، ليختلب الحبيبةَ ويسترضيها . وكان من ذلك ما لا بد أن يكون من كثرة المحو والإثبات فيها . فقام بنفسها ـ فى سوء ظنها به ـ أن كثرةَ التغيير فى رسائله حاصلٌ من أنه ليس يصدر عن صدق شعورٍ وطبعٍ ، ولكنه التلفيق وتزوير القول . وفى ذلك يقول :

غضِبتْ لمحوٍ فى الكتاب كثيرِ　　قالت : « أراد خيانتى وغرورى
كتبَ الكتابَ على خلافِ ضميرِه　　فالمحوُ فيه لكثرة التغيير »

وعزمت مولاة جنان على الحج ، ورأت أن تصحبها ولا تتركها . وترامى الخبر إلى الشاعر من بعض رفاقه محمد بن زياد المعروف باليؤيؤ ، فقال شاعرنا للذى أخبره : « أما والله لا يفوتنى المسير معها والحجّ عامى إن أقامت على عزيمتها ، وما علىّ من هذا » . فظُنّ مازحاً فى أول أمره . ولكنه سبقها إلى الخروج بعد أن أيقن أنها خارجة . وما كان أبو نواس ينوى الحجّ عمره ، وما أحدث عزمَه إلا خروجُها .

ولقد شوهد فى الحج وقد أحرم . فلما جنّه الليل على هذه الأرض المباركة

وقد ازدحمت بالمسلمين من أقطار الأرض مشارقهـا ومغاربها ، فاض عليه الشعور العام واشتمله ، وغلب عليه الإيمانُ ، واهتزت نفسُه فى جنح هـذا الليل لنجوى الغيب ، فسُمع يلبِّى بشعر وهو يحدو به ويطرّب :

إلهنا : ما أعدلَكْ   مليك كلّ مَنْ مَلَكْ
لبّيك ، قد لبيتُ لك   وكلٌّ من أهَلّ لك
لبّيكَ إن الحمدَ لك   والملكَ ، لاشْريكَلك

والليل لما أن حَلَك   والسابحات فى الفلك
على مجارى المنسَلَك   ما خاب عبدٌ أمّلك
أنتَ له حيث سلك   لولاكَ يا ربّ هلك

يا مخطئاً ما أغفلك   عجِّلْ وبادرْ أجلك
واختمْ بخيرٍ عملك   لبّيك إنّ العزَّ لك
والملكَ لاشريك لك   والحمدَ والنعمةَ لك

وكانت سبحة من سبحات الروح التى لا يخلو أن تطرق النفسَ البشريةَ مهما يكن من ضلالها أو إنكارها فى لحظة من لحظات الاتصال بالقوى الغيبية العلوية .

فلما كان الطواف ، لقيه بعضُ أصحابه ، ثم فاتهم وتقدّمهم ، فاذا بهم يرونه خلف امرأةٍ ، ولا يكادون يرونه إلا خلفها . فلم يدروا مَنْ هى . فلما

صارا إلى الحجر الأسود فإذا بالمرأة تلثم الحجر، و إذا هو قد لثمه معها حتى ألصق خدَّه بخدها فى زحمة الخلق . وتفطّنوا لها فإذا هى جنان . فلما انصرفا ، لقيه ممن راقبوه محمد بن عمرو الجماز (ابن أخت سلم الخاسر الشاعر) فقال له : « ويحك ! فى هذا الموضع لا يزجرك زاجر ، ولا يمنعك خوفُ الله ولا يردُّك حياءٌ من الناس ! قد رأيتك وما صنعتَ اليوم » . فقال: « يا أحمق ! وحَسِبْتَ قطعَ المهامه والسباسب والرمال إلا للذى حججتُ له و إليه قصدت! » . ثم أنشأ يقول :

وعاشقين التفّ خدّاهما عند التثام الحجر الأسودِ
فاشتفيا من غير أن يأثما كأنما كانا على موعد
لولا دفاعُ الناس إياهما لما استفاقا آخرَ المسند
ظِلْنا كلانا ساترٌ وجهَه — مما يلى جانبَهُ — باليد
نَفْعَلُ فى المسجد ما لم يكن يفعله الأبرارُ فى المسجد

وعاد أبو نواس من حجه هذا غير المبرور ، يردد قوله :

ألم ترَ أننى أفنيتُ عمرى بمطلبها ، ومطلبها عسيرُ
فلما لم أجدْ سبباً إليها يقرّبنى ، وأعيتنى الأمور
حججتُ ، وقلتُ قد حجّتْ جنانٌ فيجمعنى و إياها المسير

وتابع أبو نواس بعد عودته إيفاد الرسل إلى جنان ، حتى أعيتها الحيلةُ

فيه ، فاستنظرته إلى أن يخرجَ زيادٌ[1] أخو مولاتها فى سفرٍ من أسفاره ، ولم يكن ذلك إلا تعللًا منها . فقد خرج زيادٌ ، وانقضت الأيامُ فى إثر الأيام ولم توفِ له ولا خرجتْ لملاقاته . فكان يطوف بقصر الثقفيين كلَّ يومٍ على حد قوله :

أطوف بقصركم فى كل يومٍ ‏ ‏ ‏ كأن لقصركم خُلِق الطوافُ

وهو متطلعٌ متنظرٌ على غير جدوى :

جَفْنُ عيني قد كاد يسـ ‏ ‏ ‏ قطُ من طول ما اختلجْ
وفؤادى من حرّ حبـ ‏ ‏ ‏ ـك قد كاد أو نضج
خبّريني – فدتك نفسـ ‏ ‏ ‏ ـى وأهلى – متى الفرج ؟
كان ميعادُنا خرو ‏ ‏ ‏ جَ زيادٍ ، وقد خرج
أنت من قتل عائذٍ ‏ ‏ ‏ بك فى أضيق الحرج

وكانت جنانِ لا يزال يساورها ويتمثل لوهمها ما هو متواترٌ شائعٌ من عبث الشاعر وقبح سيرته و بُعدِه عن جدّ الحياة واسترساله مع المجانة والهزل . فكرهت بعد هذا كله أن تكون لمثله . ورجعت إلى عادتها من مجافاته وسوء ملاقاة رسله ، وعادت تَتَهَجّمه كلما ذُكِر لها اسمُه ، وتظهر التأذى من تهتكه فيها وغزله . فقال وهو لا يكاد يكتم غيظه :

وَا بِأَبِي مَنْ إذا ذُكِرْتُ له ‏ ‏ ‏ وطولُ وجدى به تنقّصني

(١) الأغانى فى الصفحة ١٢ من الجزء ١٦

لو سألوه عن وجهِ حجّته   في سبهِّ لي ، لقال : « يعشقني » ؟
نَعَمْ ، إلى الحشر والتنادِ ، نَعَم   أعشقه أو أُلَفَّ في كَفَني
لا تَثْنِني — وَيْكَ — عن محبته   ما دام روحي مُصاحِباً بدني
أصيح جهراً لا أستسِرُّ به   عنّفني فيه من يُعنّفني :
« يا معشر النـاس فاسمعوهُ وعُوا   إنّ جنانا صديقةُ الحسن »

ولقد غضبت جنان لذلك غضباً شديداً ، فأطالت هجره ومصارمته ، وأصرّ الرجل على حبه لها وتشبيبه بها :

أنا أهواكِ ، فموتي كمدا   إنني لستُ بسالٍ أبدا
بأبي — لا غمّكِ الله — اصبرى   إلزمى الهجران وارضِى لي الردى

ورآها المسكين ذات ليلة في منامه ، وكأنها قد صالحتـه ، فاهتاج شوقاً إليها ، وكتب لها من فوره :

إذا التقى في المنام طَيْفـانا   عاد لنـا الوصـلُ كما كانا
يا قرة العينين ما بالنـا   نشقى ويلتـذُّ خيـالانا
لوشئتِ — إذا أحسنتِ لي في الكرى —   أتممتِ إحسانَك يقظانا
يا عاشقَيْن اصطلحا في الكـرى   وأصبحا غضبـى وغضبـانا
كذلك الأحـلام غرّارةٌ   وربمـا تصـدق أحيـانا

وأخيرا أجمعت « عمارة » عزمها ، وبيّتت النيةَ وزوجها على أن يُغيّبا جنان عن الشاعر . وكان لمولى جنان أخٌ يقال له أبو عثمان ، وكان شديد الاعتقاد

بأن الجارية لم تكن من الشاعر فى موضع عشق ، ولا كان مذهبه النساء ، ولكنه عبثٌ خرج منه . وكانت لأبى عثمان ضيعة بحكمان فى ظاهر البصرة فانتقلوا إليها ونزلوا بها . وشق ذلك على الشاعر ولاع قلبه ، وانطوى منه على شجو ناصب ، فكان لا يُرى إلا هائما على وجهه ، مشغول القلب ، مضطرب البال. وكان يقصد الجبل بالبصرة يسأل كل من أقبل من تلك الناحية، ويحتال فى ذلك فيجعل سؤاله عن أبى عثمان وعن زوج عمارة أبى ميّه[1] محمد بن خالد ، وغنىٌّ عن البيان أن قصده كله التقصّى عن جنان ، وما كان ذلك ليخفى على واحد ممن كان يتوجه إليهم بالسؤال :

أسأل القادمَيْن من حَكمان «كيف خلّفتما أبا عثمان ،
وأبا ميّـة[1] المهذّبَ والمأ مول والمرتجى لريب الزمان ؟ »
فيقولان لى : « جنانُ كما سرّ كِ من حالها ، فسَلْ عن جنان »
ما لَهُمْ ـ لا يُبارِكِ الله فيهم ـ كيف لم يُغنِ عندهم كتمانى ؟

وما من ريب فى أن أبا نواس كان حقيقا بأن تنصلح حاله ويستقيم طبعه وتحمد سيرته ويصحّ دينه ، لو أن علاقته بجنان فى عقلها وكمال أدبها

(١) جاء فى الأغانى فى الصفحة ٥ من الجزء ١٨ أن (أبامية) ابن عم (لأبى عثمان) ولزوج عمارة محمد بن خالد . لكنه جاء قبل ذلك فى الصفحة نفسها أن أبا مية هو نفسه زوج عمارة ولعل ذلك الأصح . ويؤيده ما ورد فى الأغانى فى الصفحة ٢٣ من الجزء ١٧ من أن أبا مية (أمية) اسمه خالد ، وللشاعر بن مناذر فيه أبيات مذكورة تشير إلى أنه كان يخطب نساء ثقيف فيرد لفقره ـ وهذه بعينها حال محمد بن خالد لولا أن نجحت (سرور) فى الاحتيال له فى الزواج بعمارة مولاة جنان .

قد دامت له ، وأدّت إلى نتيجتها الطبيعية من اقترانه بالمرأة التى يحبها ، والاستقرار بالحياة الجنسية فى كنفها ، وطلب ما فيه الرفعة له فى عينها . ولكنها هى وجميع من حولها — لسوء حظه وتعسه — لم يفهموه حق فهمه ، فلم يصدّقوا أن جنان منه فى موضع عشق ولا عشرة ، أو أنه يخلص يوما فى حب المرأة .

وحسبنا فى الدلالة على الأثر الطيب الذى كان لهذه العلاقة فى صلاح سيرته وخلقه هذه الأبيات :

لولا حذارى من جنانٍ خلعتُ عن رأسى عنانى ،
وركبتُ ما أهوى وكم أجفو مقالةَ من نهانى ،
وخرجتُ أخبط سادراً لم أُغْنَ عن حبّ الغوانى .

وقد تبين أيضا أثر ذلك واضحا فى شعره ، حتى أخذ عليه بعضهن سكوته عن تصوير محاسن الاجسام ونعت الخمر إلى وصف الجوى وشكوى الهجر :

وقائلة لى « كلُّ شعرك فى الهجر ! » فقلت « برغمى حيث سار به شعرى
تشاغل بالهجران ممن أحبُّه ، وقد كان يحلو بالمحاسن والخمر »

فلما أن طال الأمر بالشاعر العاشق ، وأيقن باليأس من مطلبه ، وانقطع منه رجاؤه ، لم يطق المقام فى البصرة ، فأزمع الرحيل ، وكان برغمه التوديع :

كفى حَزَناً ألا أرى وجهَ حيلة أزور بها الأحباب فى حكمان
وأقسمُ لولا أن تنال معاشرٌ جناناً بمالا أشتهى لجنان ،

لأصبحتُ منها دانيَ الدار لاصقاً ‏ ‏ ولـكنّ ماأخشى ـ فُديتِ ـ عدانى

أرانى انقضت أيامُ وصلىَ منكمو ‏ ‏ وآذن منكم بالوداع زمانى

فواحزناً يومى إلىَّ به الورى ‏ ‏ ويصبحُ مأثوراً بكل مكان

ونزح أبو نواس يطلب ودّ الملوك فى بغداد . ويخطىءُ من يحسب هذه الدنيا الزاخرة الشائقة التى هو مقبلٌ عليها بالتى تذهله عن جنان . وحسبنا فى ذلك اعتراف الشاعر نفسه « وخرجتُ إلى بغداد وفى نفسى بقايا من حبها ، ما فارقتنى ولا تفارقنى إلا مع خروج روحى » .

فى طريق بغداد

خرج أبو نواس من البصرة كالهائم على وجهه ، وقد اسودّتْ فى عينه مجاليها ، وضاقت به مغانيها . فغادرها مدّعياً الكره لها والتنكر لأهليها . ولا شك فى أنه كان يجد للذكرى وجداً عظيما ويحسّ لها مضًّا أليما ، حتى بلغ فى طلبه النسيان أنه عمد الى المراسلة بينه وبين خاصة الإخوان فى البصرة يقطعها :

قولا « لعباسٍ » لكى يدرى   لغلام عَكٍّ قُدْوَةَ المِصْرِ
« فيمَ الكتابُ إلىَّ تخبرنى   بسلامةٍ ـ فى البطنِ والظهرِ
فاقطعْ بسيفٍ صارمٍ ذَكَرٍ   أسبابَ كتبٍ بيننا تجرى
فإن امتنعتَ فلا مواترة   حسبى كتابٌ منك فى الدهر
واجمعْ حوائجك التى حضرتْ   عند الكتاب إلىّ ـ فى سطر
ما ذاك إلا أننى رجل   لا أستخفُّ صداقة البصرى

على أنه غير قمين بالقارئ أن ينخدع بهذا القول فى حالة السخط واليأس فقد عاد الشاعر يحنّ الى موطنه فى البصرة . ويشتاق منازلها ومعاهد صباه فيها

ولكنه كان يتكلف الصبر ، ويُلزم نفسه السلوان ، متلهِّياً بالشرب والقصف في الحانات والمتنزهات ، كما تشهد بذلك هذه الأبيات :

عفا المصلَّى ، وأقوَت الكُثُبُ ... مِنِّىَ فالمِرْبدان ، فاللبَبُ
فالمسجدُ الجامعُ المروءةِ والد ... ين عفا ، فالصِّحان فالرُّحَبُ
منازلٌ قد عَمَرْتُها يفعاً ... حتى بدا فى عذارىَ الشُّهُبُ
فى فتيةٍ كالسيوف هزَّهُمُ ... شرخُ شبابٍ وزانَهُمْ أدب
ثم أراب الزمانُ فاقتسموا ... أيدى سبا فى البلاد فانشعبوا
لن يُخْلفَ الدهرُ مثلَهم أبدًا ... علىّ ـ هيهات ـ شأنُهم عجبُ
لما تَيَقَّنْتُ أنَّ رَوْحَتَهُمْ ... ليس لها ما حييتُ منقلب
أَبْلَيْتُ صبراً لم يُبْلِهِ أحدٌ ... واقتسمتنى مآربٌ شُعَبُ
كذاك أنى إذا رُزِئْتُ أخًا ... فليس بينى وبينه نسبُ
قُطْرُبُّلٌ مربعى ، ولى بقُرَىَ الـ ... ـكرخ مصيفٌ ، وأمِّىَ العنب
تُرْضِعُنى دَرَّها ، وتُلحفنى ... بظلّها والهجيرُ يلتهبُ
إذا ثَنَتْهُ الغصون جلّلنى ... فينانُ مافى أديمه جُوَبُ
تبيتُ فى مأتمٍ حمائمُه ... كما تُرَنِّى الفواقدُ السُّلُبُ
يهبُّ شوقى وشوقهنّ معاً ... كأنما يستخفّنا طربُ

فإذا أضفنا إلى هذه أبياتاً له أخرى يقول فيها :

أيَا منْ كنتُ بالبصـ ... ـرة أصفى لهمُ الودَّا

ومَن كانوا موالىّ ومن كنتُ لهم عبدا
ومَنْ قد كنتُ أرْعاه وإن ملَّ وإن صدّا
شربنا ماءَ بغدادٍ فأنسانا كُمُ جِدًّا

لم يبق موضعٌ للشك فى أن شاعرنا نزح من البصرة لأنه خاب فى حبه وفُجِعَ فى قلبه . ولقد بلغ به الكمدُ والكربُ أن بدت فى عذاره ومفرقه رواعى الشيب ، ولمّا يزل فى شرخ الشباب وريعانه .

وأخذ الشاعر فى طريقه الى بغداد . فعاج بالكوفة فيما عاج به من البلاد . وهو فيما كان عليه من حال لم يكن يقصد منها الكوفة الجليلة المعروفة بالعلم والعلماء ، وإنما كان يقصد منها الكوفة الموسومة بخد العذراء ، تلك التى عرف سوادَها وجاسَ أرباضها وشرب فى دساكرها وحاناتها، واطّلع طلع ملاهيها، وخبر مواضع القصف فيها، أيام عشرته لوالبة ومقامه معه . إنه اليوم لأشد حاجة الى السُّكر ، وأفسح عذراً فى التلهّى والقصف ، تفرّجاً عن همه وتخفّفاً من يأسه القاتل وهرباً من نفسه . ولقد لقى صاحبنا فى الكوفة من الندماء من أحمد مودتهم وارتضى صُحبتهم وأنس بمنادمتهم، حتى ختم قصيدته الرائية فى ذم البصرة بقوله :

ذهبت بنا « كوفانُ » مذهبَها وعَدِمْتُ عن ظُرَفائها صبرى

وكان بظاهر الكوفة وحولها مواضع من أنزه البقاع وأطيبها ، كثيرة المياه والرياض ، وكانت تقوم فى معظمها ديارات للنصارى . وكان الرهبان فى انقطاعهم بهذه المواضع يعملون إلى جانب العبادات لتزويد الدير بحاجاته وتوفير

موارده . فهم يتخذون حوله المزارع والمباقل والبساتين والكروم ، وإلى ناحية من الكروم يتخذون معاصر الخمر . ولقد كان ما يزيد على حاجة الدير يباع للارتفاق بثمنه . ومن ثمة كان للأديار تجارة بمزروعاتها من الثمار والزعفران وعلى الخصوص بمعتقاتها من الخمور ، وهى من قديم « المشهورة فى الآفاق ، المعروفة مغارسها بطيب الأعراق » . ولقد كثر طلب أهل الشراب من المسلمين للخمور النصرانيـة لارتياض النصارى باعتصارها وحذقهم له ، فضلاً على ما اختصت به معاصرُ الأديار من النظافة . وكان من هذا الإقبال أنه تأدّى بالرهبان إلى اتخاذ الحانات إلى جانب الأديار لبيع خمورها لمريديها . فكان يَقصد إليها فيمن يقصد أصحابُ اللهو والمجان من المسلمين ليشربوا الخمر العتيقة ، فى الآنيـة النظيفة الأنيقة ، على الوجوه الحسان ، بين الرياض والبساتين الحالية بصنوف الأزهار والرياحين ، وعلى قرع النواقيس وأنغام التراتيل والقراءات فى المزامير والأناجيل ، وغير ذلك من التلاحين البيعية

ولقد عاج أبو نواس فى طريقه إلى بغداد على حانات هذه الأديار التى كانت كثيرة حول الكوفة وفى ظاهرها ، فكان يشرب فيها حتى يسكر ، ولم يكن بعدُ قد تعوّد الإدمانَ عليها والعبَّ فيها :

وقهوةٍ عُتّقتْ فى دير شمّاش ... تَفْتَرّ فى كأسها عن ضوء مِقباس
مزاجُها دمعُ حاسيها ، فأىُّ فتًى ... لم يَبْكِ إذ ذاقها من حرقة الكاس
سِلْمٌ ، ولكنها حربٌ لذائقها ... ياحبذا بأسها ما كان من باس

وكان مع هذا يحمل بالشراب على نفسه ، ولا يدع الساقى يَفْترعنه ،

ولا يبرح يناشده أن يحثّ المدامة إليه ويديرها مراتٍ بعد مراتٍ عليه . وإنه ليتبادر للخاطر أنه كان يشرب لا للشرب ولذّته ، وإنما تعجلاً لسكرته والتماساً لذهول العقل وغيبة الفكر :

رُدّا عليَّ الكأسَ إنكما   لا تدريان الكاسَ ما تُجدي

لو نلتما ما نلتُ ما مُزجت   إلا بدمعكما من الوجدِ

وظاهرٌ من هذا أنه قد عكف على الكأس حين عكف ليُغرق الهمَّ في كأسه ، وليخرج بالسكر عن حسّه وينسلخ عن ذكرى أمسِه . فهل تراه أدرك من ذلك مبتغاه وبلغ ما في نفسه ؟ هيهات ، بل كانت هذه المجالس التي جلسها للشرب في الأديار على رنين النواقيس وترانيم الرهبان وأنواع التطريب والألحان أدعى للذكر وأوْرَى عنده لنار الوجد ، حتى لتغلب الحالُ عليه وتطفح به ، فيظهر طربُه خارجاً عن القصد متجاوزاً للحد ، يحسبه منادموه عربدة منه لخفاء سره وجهلهم لأمره :

إذا شاقك ناقوسٌ   وشجوُ الناى والعودُ

وغوديتَ بريق الخمـر مجّته العناقيد

تطرّبتَ إلى الإلف   فقالوا أنت عربيد

وهل عربدَ مكروبٌ   قريح القلب معمود !

ولقد كان من الدواعي المحبِّبة للشرب والمغرية به موقعُ الأديار بين الجنان المونقة والغدران المترقرقة ، أو على الرّوابي العاليـة المطلّة على الأودية الناضرة والمياه المتحدرة والسهول الفسيحة . ولا شك في أن رقةَ الهواء ، ورواء المنظر

وحسن المستشرف، وهذه الألوانَ البهيجة المشبوبة، والعطورَ الممتزجة المشوبة، من شأنها أن تشحذ الحواس وتنبّه مراكز العصب، فيتحرك الحب فى قرارة كل قلب. وإذ لم يكن لشاعرنا المهجور أملٌ فى الحب، فقد انصرف إلى الشرب فى هزّة طربه واهتياج مشاعره. وهذه أبياتٌ له فى دير مَرْيونان ـ ويقال له أيضاً عُمْريونان ـ فى الأنبار على ضفة الفرات، وهو دير كبير عليه سورٌ محكم، ورياضه غنّاء فيحاء:

آذنك الناقوسُ بالفَجْرِ | وغرّد الراهب فى العُمْرْ (١)
وحنّ مخمورٌ إلى الخمر | وجاءك الغيثُ على قَدْرِ
واطّردتْ عيناك فى روضةٍ | تضحك عن خُضْرٍ وعن صُفْرْ
فعَاطِ نَدْمانَك من خمرةٍ | مزاجُها من مُغرِق القطر
على خُزاماها وحَوْذانها | ومشكلٍ من حال الزهر
فى مسرحٍ ترتع أكنافَه | شوادنٌ من بقر زُهْر
ياحبذا الصبحة فى العُمْرْ | وحبذا نَيْسانُ من شهر
ياعاقد الزّنّار فى الخَصْرِ | بحرمة الحانة والفُهُرْ (٢)
لا تَسْقِني ـ إن كنت بى عالماً ـ | إلا التى أضمرتُ فى صدرى
هاتِ التى تعرف وجدى بها | وا كْنِ بما شئتَ عن الخمر

ومن الدِّيَرة التى عاج بها أبو نواس بظاهر الكوفة على بعد يومين منها دير حَنّة، وهو ديرٌ قديمٌ فى بقعة كثيرة الرياض والبساتين، تحاذيه منارةٌ

(١) الكنيسة (٢) العيد أو المعبد

عالية كالمرقب تسمى القائم ، وبه بيوت صغار يسكنها الرهبان الذين لا قلالي لهم وتُسَمَّى هذه البيوت بالأُكَيْراح . ولعله من أدلّ الشواهد أيضا على ما كان يمكن أن يكونه أبو نواس لولا شؤم مصادفاته وفساد بيئته ، ما دخل على نفسه من شعور حين طرق هذا الدير وكلُّ همّه أن يسكر من معتّقات دنانه، وينظر الى ظبائه من الإنس وغزلانه، على حد قوله :

يادير حنّة من ذات الأُكَيْراح مَنْ يَصْحُ عنكَ فإني لستُ بالصاحي
رأيتُ فيك ظباءً لا قرون لها يلعبْن منا بألبابٍ وأرواح

فانه مع ما كان من سكره ومجونه ، لم يلبث أن راعه وأخذ بقلبه هذا المشهدُ الماثل لعيانه للزهد فى متاع الحياة ، والإعراض عن الدنيا والانقطاع لله. فقد جعل - وبه شعورٌ مخامر من العَجَب الذى لا ينقضى والارتياح الذى لا يدرى كنهه - يتأمل هؤلاء الرهبان وهم فتية شبان قد أنحلهم القنوت والتقشّف ، وشفّهم التهجد والتعبّد ، وأذابهم طول التفكير والخوف من نار السعير ، فلا يرى الناظر إليهم إلا أشباحًا، محفوّة مفارقهم ، محوّقة رءوسهم ، عليهم من ثياب الرهبانية مسوحٌ خشنةٌ بالية ، وقد عزفوا فى مطالب العيش عن كل زيادة ، وحرّموا على أنفسهم من أسباب الترف أهونَ وسيلة وأدنى آلة ، حتى ليشربون من الغدرانِ بغير آنية اغترافًا بأيديهم . فاسمع إليه يقول فيهم :

دعِ التشاغلَ باللذاتِ - ياصاحِ - من العكوف على الريحان والراحِ
واعدِلْ إلى فتية ذابت نفوسهم من العبادة ، نُحْفِ الجسم ، أطلاح

لم يبق منهم لرائيهم إذا حصلوا ـ حذارَ ما خوّفوه ـ غيرُ أشباح
تلقى بهم كلَّ مخفوٍّ مفارقُه من الدهان ، عليه سُحْق أمساح
لا يدلفون إلى ماءٍ بآنيـة إلا اغترافاً من الغدران بالراح

ولقد بلغ من قيام هذه الصورة بنفسه، ومن تحقق معناها فى حسّه، أن عاد إليها بمثل هذا الوصف من البحر والقافية :

دعِ البساتين من آسٍ وتفاحِ واعدلْ ـ هُدِيتَ ـ إلى ذات الأكيراح
إعدلْ إلى نفرٍ دقّت شخوصُهم من العبادة إلا نِضْوَ أشبـاح
يكرّرون نواقيساً مرجّعـــة على الزبور بإمساء وإصباح
تُبعِدْ بسمعك عن صوتٍ تَكَرّهه فلست تسمع فيه صوتَ فلّاح
إلا الدراسةَ للإنجيل من كُتُبٍ ذكرَ المسيح بإبلاجٍ وإفصاح

على أن الشاعر لا يلبث حتى يعاوده ما تعوّده أمثاله من السكر والمجون، فتراه بعـد أن عدل ـ فى هاتين المقطوعتين ـ عن الريحان والراح والآس والتفاح، إلى ذكر العبادة والصلاح، ووصف العابدين أنضاء النسك كالأشباح، ينتقل إلى ما كان عليه من التغنى بالخمرة المعتقة التى يُتحفون بها الضيوف فى القِعاب الكبار ، وإلى التغزل بالراهب الفتىّ الذى دار بها عليهم وقد صار بعد السكر ينعت نحولَه بالهيَف ، وعاد يستظرف ما عليه من مسوح الرهبانية ومدارع الصوف . وكذلك ترجع نغمـة شعره إلى وتيرتها ، وتعود حياته الماجنة سيرتَها ، فيختم أوصافَه للدير وأهله كما بدأها :

يا طيبَه وعتيقُ الراح تُتْحِفُهم بكل نوع من الطاسات رَحْراحِ

يسقيكها مُدْمَجُ الخصرينْ ذو هَيَفٍ أخو مدارع صوفٍ فوق أمساحِ

ولقد كانت الأديار كثيرةً فى العراق والجزيرة والشام وغيرها ، وكان بعضها على جانب عظيم من حسن العمارة ونفاسة البناء ، وقد تُحَصِّنها الأسوارُ الشاهقة والأبواب المفرطة فى الكبر من حديد مُصْمَتٍ أحيانا ، وكان منها ما تعلوه القبابُ المنيفةُ تُرَى من بعيد . وكان لبعضها زينةٌ فى داخلها نهاية فى البهاء والرواء . فمنها ما كانت مزوّقة الجدران بأشكال النقوش والفصوص المذهبة ، مفروشة أرضها بصنوف الرخام المجزّع والمرمر المسنون المرد لا تستقر عليه القدم ، وفى سقوفها الذهب والفسافس واللازورد ، وقد عُلّقت فى هيا كلها القناديل من فضة ، واتُّخذتْ لها الصلبان من ذهب . وفى أركانها وآزاجِ طيقانها الدُّمَى محفورة منقوشة بأنواع الأدهان ، وفى سقفها وحيطانها صور مرسومة ملونة بأزهى الأصبغة والألوان . وفى الصدر صورةُ المسيح وعلى رأسه إكليلُ الشوك ، أو صورة مريم فى غاية من إتقان الصنعة « كلما مِلْتَ من ناحية كانت عينُكَ إليها » .

ولقد كانت الأكوابُ التى يُسقى بها ضيوفُ الدِّيَرَة من ذهب أحيانا ، وكان منها الأملس الغُفْل ، ومنها المنزَّل المحفور بأنواع الرسوم الدينية . ولقد شرب أبو نواس خمرة ذهبية اللون فى أمثال هذه الأكواب الذهبية، فقال :

أقول لما تحاكيا شَبَهاً أيّهما — للتشابه — الذهبُ

هما سواءٌ ، وفرقُ بينِهما أنهما جامدٌ ومنسكب

مُلسٌ ، وأمثالها محفَّرة صُوَرٌ فيها القسوسُ والصُلُب
يتلون إنجيلهم ، وفوقهمُ سماء خمرٍ ، نجومها الحَبَبُ

ولقد كان من كثرة غشيان الشعراء المجان أمثال أبى نواس لحانات هذه الأديار أن كثر فى أشعارهم وُرُودُ أسمائها والتغنى بخمورها ووصف بساتينها. وقد ألمّوا فى تلك الأشعار ببعض شعائر النصارى ومصطلحاتهم وإن كانت لا تخلو أحيانا من بعض التخليط ، كالذى يزعمونه عن ليلة الماشوش وما يجرى فيها من إباحات واستهتار بالمحارم مما لا يُقرّه دينٌ ولا يصحّ فى عقل. وإلى هذا الوهم يشير أبو نواس فى أبيات له فى تفضيل بهروز الفارسى على الغلمان النصارى :

نقىٌّ فى الولادة عن مَشوشٍ يرخّصه النصارى للقسوسِ

وحسبنا لبيان إلمام هؤلاء الشعراء المسلمين بالشعائر النصرانية فى أعياد القوم ومتعبداتهم هذه الأوصافُ لأبى نواس :

كأنما الكأسُ إذا صُفّقتْ قنديلُ قسٍّ وَسْطَ محرابه

وله فى فوران الخمر فى إبان تعتيقها فى الدنان :

أقامت حقبةً فى قعر دنٍّ تفور وما يُحَسّ لها لهيب
كأن قِراتَها فى الدنّ تحكى قِراةَ القسّ قابله الصليبُ

وقوله متغزلا :

عيناى تشهد أنى عاشقٌ لكُمُ يا دُمْيَةً صوّروها فى المحاريبِ

وأخيراً هذه الأبيات فى المجون يخاطب فتًى نصرانيا اسمه عبد يشوع بن بمارى سرجس :

بمعمودية الدين العتيق ... بمطرُبليطها ، بالجاثليق[١]
بشمعونٍ ، بيوحنّا ، بمتّى ، ... بمارى سرجسَ القسِّ الشفيق
بمارتِ مريمٍ ، و بيوم فصحٍ ، ... وبالقربان ، بالخمر العتيق
بميلاد المسيح ، بيوم ذبحٍ ، ... وباعوثٍ[٢] لتأدية الحقوق
وأيام السعانين[٣] المبدّى ... وشمعلة النصارى فى الطريق
لهيكلِ أسقفٍ، وبما يليه ، ... ونَشْرِ البَنْد والعَلَمِ الخفُوق
وبالصّلبان ترفعها رماحٌ ... تَلَالَا ، حين تومض بالبروق
وبالناقوس فى البِيَع اللواتى ... تُقام بها الصلاة لدى الشروق
بداودٍ وما يتلون منه ... بترجيعٍ يُرَدّد فى الحلوق
بقلّايات دومة ، بالمقاسى ... ومذبح ديرها الحسن الأنيق
ورهبان الصوامع فى ذراها ... مُقامُهم على جهدٍ وضيق
بكُنْسِ الروم والشامات طرًّا ... بقسطنطينة البلد السحيق
لقد أصبحتَ زينةَ كلّ عيدٍ . ... ودِينٍ ، مَعْ جفائك والعقوق

ومن مقطوعة أخرى :

---

(١) الجاثليق مقدم الأساقفة (٢) الباعوث : عيد للنصارى كالاستسقاء للمسلمين
(٣) السعانين أو الشعانين عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع .

بروح القدس والميـلا د والهيكل والذبحِ
وصورة مريم العليـا وبالسلّاق[1] فى الصبح

ومثلها :

بسجود القسيس يوم السجودِ والصليب المعظّم المعبودِ
وبناقوس بيعـةِ اللحم حقًّا وبأقفالها وبالإقليـد
وبما فى بيوتها من رخامٍ وبما تحت سقفها من عمود

وغير ذلك كثيرٌ من الأقسام التى تشتمل فى مضامينها على جملة أوصافٍ لشعائر النصارى وسُنَنهم ومشاهد مواكبهم ومصطلحات دينهم ومتعبَّداتهم . وفيما ورد منها الكفايةُ وفوق الكفاية للدلالة على اتصال المسلمين بهم اتصالَ معرفةٍ ومودة ، وعلى اغتنام الخلعاء والمتماجنين لأيام أعيادهم للنظر إلى محاسن فتيانهم وفتياتهم فى الحَلْى والحُلَل فى غدوّهم إلى البِيَع والكنائس ، والتعرّض لهم أحيانا بالغزل والعبث .

على أنه يحسن أن ننبه هنا إلى أن ما يرويه أبو نواس وأمثاله من خلاعاتهم ورقاعاتهم فى الأديار فى عصبة من الفتاك الخلعاء ورفقة من الشطار والفتيان المفاسيد ، إنما ينصرف إلى الحانات والبساتين التى حولها ، كما هو واضح جلىّ من شعره :

بدير نهراذان لى مجلسٌ وملعبٌ وسـط بساتينه

---

(١) السلاق : عيد للنصارى وفيه تساق المسيح مصعداً الى السماء

رحتُ إليه ، ومعى فتيةٌ نزوره يوم سعانينه
بكل طلّاب الهوى فاتكٍ قد آثر الدنيا على دينه
حتى توافينا إلى مجلسٍ تضحك ألوانُ رياحينه
والنرجس الغضّ لدى ورده والوردُ قد حُفّ بنسرينه
وجيء بالدنّ على مرفعٍ وخاتم العِلْج على طينه
وافتُصد الأكحلُ من دنّنا فانصاع فى حمرةِ تكوينه
وطاف بالكأس لنا شادنٌ يُدميه مسُّ الكف من لينه
يكاد من إشراق خديه أن تُختطف الأبصار من دونه
فلم نزل نُسقَى ونلهو به ونأخذ القصفَ بأبينه
حتى غدا السكْرانُ من سكره كالميْت فى بعض أحايينه

ومثل ذلك كان مجلس شاعرنا فى طيزناباذ بين الكوفة والقادسية . ودياراتها ذات قباب ، وهى من أنزه المواضع ، محفوفة بالكروم والشجر ، وفيها المعاصر والحانات ، وكانت أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة . والقول هنا أيضا معدول عن الدير إلى بستان صاحب الدير (وهو العمّار أى الديرانى ، من العُمْر وهو الدير) :

يا حبذا مجلسٌ قد كان يجمعنا بطيزناباذ فى بستان عمّار
وحبذا أم عمّارٍ ورؤيتُها خمّارةً أصبحت أمًّا لعمار
تَعُلّنا بمدامٍ قد تناولها ريبُ الزمان وعصرٌ بعد أعصار
لم نَخْطُ من خِدْرها شِبْراً إلى أحدٍ ولم نزل بين جنات وأنهار

ولعل أبا نواس لم يَدَعْ فى طريقه إلى بغـداد ديراً أو عُمْراً ، ولا قلّاية أو كِرْحاً ، إلا ألمّ به، فهو لا يفتأ يلهج بذكر ديارات الحيرة وطيزناباذ والأنبار وغيرها، مردداً اشتياقَه لها وما يعتاده من الحنين إليها ، تجديداً لمجالس شربه فى حاناتها ، وملاهيه فى بساتينها :

أنا واللهِ مشتاقٌ إلى الحـيرة والخمر
وأصواتِ النواقيس على الزيرات بالفجر
ومشـتاقٌ إلى الحانا ت يَوْم الذبح والنحر
ومُفْنٍ فى طِلاب المُرْ د والخمر معاً وَفْرى
أما واللهِ لو تسمع ما قلتُ من الشعر
لآيستَ مِنِ افلاحى يقيناً آخـرَ العمر

ولقد أفادته هذه الرحلةُ مع ذلك حبَّ الطبيعة ، إذ جلّتْها أجملَ جلوة فى عينه ، وقرّبتها إلى قلبه ، وخلطتها بحسّه ، فظهر أثرُ ذلك جليًّا فى شعره . على أن هذا الحب للطبيعة لم يَرْتفع عنده إلى وقفة التعبّد فى هيكلها والخبوت لروعتها والشعور الدينى بحضرتها والاتحاد الصوفى بروحها ، وإنما كان قصاراه أن جعله دائمَ الصبوة إلى طيب المجالس فى رياضها ، سريع النشوة بعطورها وأطيابها ، متطرّباً إلى خرير جداولها وأطيارها ، منجذب العين إلى أنواعِ ريحانها ومشبوب ألوانها ، حتى صار لا يطلب شيئا طَلَبَه للشرب فى أحضانها كأنما يرتضع الخمرةَ من لبانها . ومعنى ذلك أنه وإن يكن عاشقا من عشاق

الطبيعة لم يكن عشقه لها إلا من نوع العشق الحسىّ لا يعنى بغير الملموس المحسوس. فالطبيعة عنده ــ كما قدمنا ــ ليست معبداً ، ولكنها مرتعٌ مونق للهو واللعب لا مرتَعَ مثله ، ومجلسٌ مأنوس للسكر والطرب لا يعدله مجلس . وهنا يتشاغل هـذا المحب المخيَّب عن هوى «جنان» بهوى المرد والقيان . وهنا نلقى هذا الشاعر العالم يغالب بالشراب أحزانه ويطفئُ به وَجْدَه وأشجانَه ، لو صح أن اللذةَ تغنى غَنَاءَ الحب ، وأن الخمر تُطلق النفس من عقال الهمّ ، وتُفرِغ برد العزاء على حر الأحشاء ، كما زعم صاحبنا المحروم المحزون :

لا تَخْشَعَنَّ لطارقِ الحدثانِ ... وادفعْ همومَك بالشراب القانى
أَوَ ما ترى أيدى السحائب رَقَّشتْ ... حُلَلَ الثرى بطرائق الريحان
من سوسنٍ غضّ القطافِ ، وخُزّمٍ ... وبنفسجٍ ، وشقائق النعمان
وجَـنِيِّ وردٍ يستبيكَ بحسنه ... مثل الشموس طلعن من أغصان
حُمْراً وبيضاً يُجْتَنَيْنَ ، وأصفراً ... وملوَّنا ببدائع الألوان
كعقودِ ياقوتٍ نُظمن ولؤلؤٍ ، ... أوساطُهن فرائدُ العقيان
ومن الزبرجد حولهن ممثَّلاً ... سمطاً ، يلوح بجانب البستان
فإذا الهموم تعاورتك فَسلِّها ... بالراح والريحان والندمان

دار السلام في عصرها الذهبي

تعجّل الشاعر رحلته الجميلة بعد مطاولةٍ وخَتَم مَطافَه ، وأقبل لأول عهد الخليفة هارون الرشيد قادماً على دار السلام ، بغداد التي اختطّها المنصور فأصبحت أزهى وأزهر حواضر الإسلام .

ولا شك أنه قد داخلته الروعة ، وامتلأت نفسُه جلالاً ، وشبعت عينهُ فتنةً ، وهو يستشرف إليها ، ولقد بدت أسوارُها المكينة العريضة الجدران ، الشاهقة البنيان ، كالقلعة الحصينة . وكان يدور حولها خندقٌ ، ومن ورائه مسنّاة[1] بالآجُرّ والصاروج[2] متقنة محكمة عالية . وكان دخول « أبي نواس » من المدخل المقابل للطريق التي أتى منها — أي من باب الكوفة . فإذا هو منه في دهليز عظيم أزَج[3] معقود بالآجرّ والجصّ ، في جوف السور الخارجي الكثيف ، وكان عليه بابٌ كبير جليل المقدار لا يغلقه ولا يفتحه إلا جماعةُ رجال . ثم أفضى من هذا الدهليز إلى رحبةٍ مفروشةٍ بالصخر طولها ستون ذراعا ، مسوّرة غير مسقوفة ، وهي مادةٌ في انحراف وازورارٍ

---

(١) ما يبنى في وجه السيل : السد (٢) الآجر ما يبنى به من الطين المطبوخ (الطوب الأحمر) . الصاروج الكلس (الجير) وأخلاطه (٣) على هيئة ساباط مطول مرتفع

إلى سور المدينة ، تشقّ براح الفصيل الدائر بين الأسوار الخارجية والأسوار الداخلية ، وفى حائطى هذه الرحبة عن اليمين والشمال بابان فى جنبتيْها يشرعان[١] إلى الفصيل . فلما اجتاز صاحبنا الرحبة انتهى فى صدرها الى الباب الثانى ، وهو باب المدينة فى سورها الأعظم الذى عليه تقوم الأبراجُ العظام والشرَفات المدوّرة . ومضى القادم المدهوش يخترق الدهليز الثانى فى جوف السور الداخلى والدهليز أزج معقود مثل سابقه، عليه بابا حديدٍ جليلان عظيمان ، يدخل منهما الفارسُ بالعَلَم والرامحُ بالرمح الطويل من غير أن يُميل العَلَم ولا يثنى الرمح. وتأتى بعد ذلك الرحبةُ المربعةُ تنتهى الى طاقات[٢] معقودة ، فيها كِوَاء[٣] رومية يدخل منها الشمس والضوء . وعلى طاق المدخل بابُ ساجٍ كبير من فَرْدَيْن ، وفى جنبتى الطاقات بين كل طاقيْن غُرَفٌ للمرابطة .

وكان باب المدينة الذى دخل منه شاعرنا ــ كسائر أبوابها الأربعة ــ تعلوه قبةٌ عظيمةٌ تناطح السماء ، مذهبة مزخرفة ، معقودة فوق مجالس يُشرف منها على كل ما يجرى حولها ، ويُصعد إليها على عقود مبنيــة بعضها أعلى من بعض ، وفى داخلها الديادبة والحرس ، وعلى رأس كل قبة تمثالٌ تديره الريح لا يُشبه نظائره على القباب الأخرى .

وانتهى أبو نواس من هذه الأسوار والدهاليز والطاقات والأبواب التى تحرسها الجند ، إلى داخل المدينة العظيمة . فإذا داخلُها لا يكذب ظاهرَها .

---

(١) ينفذان إليه (٢) جمع كوة (٣) الطاق : ما عطف من البناء والجمع طاقات أى أقواس من البناء

فهى من وراء ما يتصوره وهم الواهم من أبهة العمارة ، وفوق ما يقدره حسبان الحاسب من رواج التجارة ، ثم هو على أشد الزحام بالناس أخلاطاً من سائر الأجناس . ولعلّ أعظم ما شاقه منها وارتاح إليه فيها ذلك الطابع الأعجمى الذى يطبعها ويغلب عليها فى كل شىء .

فمبانيها وقصورها ومصانعها على مثالٍ من الهندسة فيه الفارسىّ والبيزنطىّ وقد حوّطوها بالأسوار ، وجعلوا فى سطوحها القِبابَ مرفوعةً على العُمُد الدِّقاق كأنها معلّقةٌ فى الهواء . وزيّنوا جدرانها وسقوفها بالنقوش الملونة ، وفصوص الفسيفساء المذهبة ، وتصاوير النبات من ثمار وأغصان ، ورسوم الطير والحيوان من طواويس وغزلان . وكتبوا الآيات بالذهب المجسّم ، وحفروا المناظر الممثلة للحياة على المعدن ، واتخذوا الزجاج الملوّن على دائر الأبواب والقَمَرِيّات . وعمدوا فى صنع أُطرها الى الآبنوس وغيره من الخشب الثمين . وتأنّقوا فى اتخاذ الجنات فى قصورهم وتنسيق المتنزهات يجلبون إليها بدائع الأغراس وغرائب الأطيار من أطراف الأرض ، ويسوقون إليها الجداول ويبنون السقايات . ويحتفرون البرك تجرى فيها الزواريق للهو والغناء فى الليالى القمراء .

وكان من هذه القصور ما يرجع عهده الى المنصور مثل « قصر الذهب » الذى بناه وسط بغداد المدوّرة ، وفى صدره الإيوان تنعقد فوق مجلسه الأعلى القبة الخضراء منيفةً تُرى من أطراف المدينة ، وعلى رأس القبة تمثالُ فرسٍ عليه فارسٌ وفى يده رمح . وكانت هذه القبة تاج بغداد ، وعَلَمَ البلد ، ومأثرةً

راسية الأساس لموطّد مُلْك بنى العباس . ثم « قصر الخلد » على شاطئ دجلة وموضعه وراء باب خراسان. وقد جاءت تسميته تشبيهاً له بجنة الخلد، لما يحويه من عجيب فائق وجميل شائق من كل ما تشتهى الأنفس وتلذّ الأعين ، وكان الخليفة هارون الرشيد يقيم وقتئذ فيه . وعلى مسافة قريبة منه قصر الملكة زبيدة المشهور بدار القرار . وكان القصران متقاربين على الضفة الغربية من النهر . وكان بحذائهما من الجانب الآخر قصورُ البرامكة لا تقلّ عنهما عظمةً وأبهة . ثم غير هذه وتلك قصورٌ عدةٌ على جانبى دجلة للأمراء والوزراء ورجال الدولة وذوى الجاه والثروة ، عدا الدور والأسواق والجوامع والحمامات وهى لا تحصى كثرةً .

وقد ذكر أبو نواس « قصر الخلد » فى بعض أشعاره :

كنت « بقصر الخلد » فى روضة تخرقها الأنهارُ بالسفنِ
خَلاَ لها الوردُ لدى نرجسٍ معتنقٍ للآس فى غصن
نيط بتفاحٍ إلى مشمشٍ بين نخيل الطّلْحِ والبرن
ياحبذا النوّار نوّاره مختلف البهجة فى الحسن
من أصفرٍ يرنو إلى أحمرٍ وأبيض فى اللون كالقطن

كما أشار الى ما كان فى قصر المهدى من حسان الطواويس فى قصيدة فى باب الطرديات ينعت ديكاً من ديوك الهند :

أنعت ديكاً من ديوك الهندِ أحسن من طاووس «قصر المهدى»

ومن إشارته لقصور الأمراء قوله فى إحدى خمرياته وقد دعاه الأمير

عيسى بن أبي جعفر المنصور ليقيم عنده أسبوعاً فى القُفص فى أرباض بغداد :

ياطيبَنا بقصور القُفص مشرقةً فيها الدساكرُ والأنهارُ تطّردُ

ولقد كان شيوع اللباس الفارسى فى بغداد يكاد يكون عامًّا بعد سنوات من صدور أمر الخليفة المنصور لأصحابه بتغيير الزى الرسمى فى سنة ١٥٣ . فكانت طوال القلانس بدل العمائم لرجال الدولة وأصحاب الديوان، والطيالس السود للعلماء والمشايخ ، والأقبية لسائر الرجال ، والقراطق والمناطق للغلمان والجوارى .

وعلى الجملة كان لون الحضارة الفارسية ظاهراً فى كل ناحية من نواحى الحياةالعملية والعلمية ، العامة والخاصة ، حتى مواكب الخليفة ورسوم الخلافة

على أن أبانواس قد شُغِل عن هذه المعالم كلها مع عظم سروره بها ، فلم يعرض بشىء من جيد القول لوصف القصور أو غيرها من آيات الحضارة وعظمة الملك فى بغداد فى عصرها الذهبى أيام الرشيد والبرامكة . وإنما الذى شغله الشغلَ كلَّه واستولى على نفسه وملَكَ عليه مشاعره ، هو هذه الروح الفارسية ذات النزعة الحسية ، منبعثةً فى بغداد ، تجرى فى حلبتها منطلقةً فى أعنّتها ، بكل ما عرف عن الفرس منذ قديم من حبٍّ للنبيذ ، ونزوع للهو والسرور ، وميلٍ للطرب والغناء ، واستجابةٍ لدواعى الغزل . وهى روحٌ متفقة مع ديانتهم الزرادشتية القديمة التى جعلتهم يعبدون الطبيعة فى مظاهرها الحسية دون استغراق فى الغيبيّات كغيرها من الديانات

ولقد كان لهذه الحضارة التى انغمس فيها الشاعر أعمق الأثر فى نفسه ،

وهي كذلك معكوسةً أصدق الانعكاس في شعره . ومعلوم أن الكثرة من شعراء عصره كانوا لا يزالون ينسجون على منوال الشعراء الجاهليين ، من الوقوف على الأطلال التي تعفّت فلا تكاد تَبين ، والبكاء على منازل الحيّ الذين تحملوا بخيامهم ظاعنين ، وذِكْر غراب البين الذي آذن بفراق الأحبة ، والتسليم على ما خلّفوا من رسوم ، وتشمم ما حولها من العَرَار والشيح والقيصوم. وذلك مع كون هؤلاء الشعراء من طبقة المُحْدَثين ، وقد بعدوا عن ذلك كله في الزمان والمكان أشد البعد ، وانقطع عهدهم بالبوادي وحياة البداوة وتبدلوا منها حواضر العراق مستبحرة العمران مترفة النعيم . ولقد أبي شاعرنا العبقري المطبوع بما كان له من رحم موصولة بالفارسية، ونزعة ظاهرة للشعوبية، وبما كان يتذوقه و يتملاّه في هذه الحياة المترفة من اللهو واللذة ، إلا أن يكون لسانَ صدق ، فيكون شعره ترجمانَ عصره ، ولا يعدو وصفُه ما يقع تحت حسه . وزاد على ذلك أنه لم يسلك طريقَه في خشية المتهيّبين وتستّر المهرّبين ، بل رفع علمَ الثورة نهاراً ودعا دعوة المصلحين جهاراً ، فحق له أن ينزل من التاريخ الأدبي منزلةَ المجاهدين ، وأن يُعرف له في الأدب العربي فضلُ المجددين .

وهـذا بعض ما كان يردده الشاعر الداعية في حملته على أصحاب المذهب القديم من الشعراء والشعارير المحدثين، وما كان يأخذ به من تشديد النكير عليهم وتعمّد التشهير :

إبخَلْ على الدار بتسليمِ فما لديها رجعُ تكليمِ

والعَنْ غرابَ البينِ بغضاً له فإنه داعيـــــةُ الشوم
وعُجْ الى النرجس عن عَرْفَجٍ ،[١] والآسِ عن شيحٍ وقيصوم
واغدُ إلى الخمرِ بإبّانهـــا لا تمتنعْ عنهــا لتحريم

ومثل ذلك قوله :

دَعِ الأطلال تَسفيها الجنُوبُ[٢] وتبكى عهدَ جِدّتهـا الخطوبُ
وخلِّ لراكبِ الوَجْناء[٣] أرضاً تَخُبُّ بهـا النجيبةُ والنجيبُ
ولا تأخذ عن الأعراب لهواً ولا عيشاً ، فعيشُهم جديب
ذَرِ الألبان يشربهـا أناسٌ رقيقُ العيش عنـدهم غريبُ
بأرضٍ نَبْتُهَا عُشَرٌ وطَلْحٌ وأكثرُ صيدِها ضَبُعٌ وذيب
إذا راب الحليبُ فبُـلْ عليـه ولا تحرَجْ ، فما فى ذاك حوب[٤]
فأطيبُ منه صافيــةٌ شَمولٌ[٥] يطوف بكأسها ساقٍ أريب

الى أن يقول :

فأين البدوُ من إيوان كسرى وأين من الميادين الدروبُ

وبعض هذه القصائد والمقطّعات لا يخلو من إشارات عابثة فكهة الى بعض المشهورات من الشعر القديم وخاصةً المعلّقات، كالإشارة الى مطلع امرئ القيس فى معلقته « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » وأمثاله ــ وهى إشارة

---

(١) العرفج والشيح والقيصوم مما ينبت فى سهول البادية ، وهى جميعاً طيبة الرائحة
(٢) الجنوب : الريح التى تهب من الجنوب (٣) الوجناء : الناقة الشديدة
(٤) الحوب : الإثم (٥) الشمول من أسماء الخمر .

أصلح ما يقال فيها أنها أشبه شيء بنكات الظراف المتحضّرين من أبناء البلد عندنا :

قل لمن يبكى على رسم دَرَسْ   واقفاً ، ما ضرّ لو كان جلس ؟

كما أنه فى بعضها شديدُ الوطأة ، عارمُ الجرأة ، مستجمعُ الحملة ، كقوله فى هذه الأبيات التى نجد روحَ الشعوبية ظاهرةً فيها وكراهة العرب غالبةً عليها :

عاج الشقىُّ على رسمٍ يسائله   وعُجْتُ أسأل عن خمّارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسدٍ   لا درّ درّك ، قل لى : «مَنْ بنو أسد ؟
ومَنْ تميمٌ ، ومَنْ قيسٌ ، ولفّهما ؟ »   ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جفّ دمعُ الذى يبكى على حجرٍ   ولا صفا قلبُ من يصفو الى وتد
كم بين ناعتِ خمرٍ فى دساكرها(١)   و بين باكٍ على نُؤْيٍ(٢) ومنتضد !

ومن طريف ما يأخذه أبو نواس عليهم ويذكره لهم فى جملة معايبهم ، ما كان من جهلهم لهوى الغلمان وتعشق الجنس لجنسه وعدم فطنتهم للغزل بالمذكر ، وذلك فى قصيدة مطولة يذم فيها الأعراب ويعرّض بعشقهم و يزرى بعشاقهم المشهورين أمثال المرقش وعبد الله بن عجلان ، وفى ختامها يقول :

أما والله لا أَشَراً(٣)   حلفتُ به ولا بَطَرا
لو أنّ مرقّشاً حىٌّ   تعلّق قلبُه ذَكَرا
كأن ثيابه أطلعـ   ـن من أزراره قمرا

---

(١) الدساكر : بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهى (٢) النؤى : الحفير حول الخيمة يمنع السيل ، والمنتضد مجتمع الرمل والحصى . (٣) الأشر : فرط المراح

ومرّ يريد ديوانَ الـ ـخَراج مضمّخاً عطرا
بوجهٍ سابريّ[1] لو تصوّب ماؤه قطرا
وعينٍ خالط التفتيرُ في أجفانها حورا
وقد خَطَّتْ حواضنُهُ له من عنبرٍ طُرَرا
يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدتَه نظرا
لأيقن أن حبّ المُرْ د يُلفَى سَهْلُه وعرا
ولا سيما وبعضهـمُ إذا حييتَه انتهرا

ومهما قيل من أن صاحبنا إنما كان في وصف اللذة والخمر تجديده جميعهُ ، فإن صدقه في الترجمة عن نفسه وتصوير بعض نواحي عصره لاشك شفيعهُ .

ولقد كان الذي اجتذب أبا نواس إلى بغداد وأخطرَها بذهنه ، هو بعينه الذي اجتذب سائرَ أهل الفن والأدب إليها منذ ابتدأ عصر المهدي . فقد كانت أيامُ أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور أيامَ تأسيسٍ للملك وإرساء لقواعده ، بالقضاء على الأمويين الأعداء ، والضرب على أيدي الطامعين من الأولياء ، فلما أن فرغ القوم من تمكين ملكهم وتأمينه طلبوا الراحة وانبسطت نفوسُهم للهو . واللهو في ذلك الحين حاضرٌ قريبٌ ، شديد السحر والفتون ، بما دخل عليه من فنون الفرس والروم . فاذا الخليفة الذي عهدناه في شخص السفاح والمنصور متشدداً مقتصداً مُؤْثِراً للجدّ منصرفاً إلى مجالس العلم ، قد بدأ في شخص المهدي يتفرج ويستمتع بشيء من اللهو ، وينفق

(١) الثوب السابري : هو الرقيق الناعم.

المال على الملْهين والمنادمين ، ويسمع المغنين جميعاً ، وكانوا فى أول أمره يغنونه من وراء ستارة، فلم يدم احتجابه هذا عن ندمائه أكثر من سنة، ثم صار يخرج لهم، ومن قوله فى ذلك «إنما اللذة فى مشاهدة السرور والدنوّ ممن سرّنى، فأما من وراء وراء فما خيرُها ولذّتها ؟» . وكان أصحابه يشربون النبيذ عنده بحيث يراهم ، وهو لا يشرب لا تحرجاً بل لأنه لا يشتهيه . وأما هواه فكان بالنساء ، وكان أحبّ شىء إليه الخوض مع خاصةِ ندمائه فى الحديث عنهن وذكر الخلوة بهن ، وكان كثير التسرى والولوع باقتناء الجوارى . وكان بطبيعة حبه للنساء والغناء قد أُغرم الغرام كله بالقيان، فكان يشتريهن ويغالى بهن ، وله فى الجوارى والقيان أخبارٌ وأشعار .

وسواء أصحّ نظم المهدى لهذه الأشعار أو لبعضها أم لم تصحّ له كلها، فانه كان يهتزّ للشعر ويجزل العطايا للشعراء . فكثر منذ عهده وفودهم على بغداد من كل صوب ، من البادية ومن مكة والحجاز ومن البصرة والكوفة وغيرها . واجتمع ببابه نفرٌ غير قليل، نذكر منهم محمد بن المولى وعبدالله بن الخياط وبشار بن برد وأبا العتاهية وأشجع السلمى ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر. ويكفى فى الدلالة على ما وقع للفن من حظوة ، وما انفتح لأهله فى ذلك العهد من آفاق ، وما درّ عليهم من الأرزاق ، أن نذكر ما كان عليه حال الشعراء ورجال الأدب قبله . فقد روى لنا الراوون أن قد اجتمع مطيع بن إياس وحماد عجرد ويحيى بن زياد يوماً فى أيام المنصور العباسى ، فتذاكروا أيامَ بنى أمية وسعتَها ونضرتها وكثرةَ ما أفادوا فيها وحسنَ ملكتهم وطيب دارهم بالشام ،

وعرضوا على جهة المقابلة ما هم فيه ببغداد من القحط وشدة الحر وخشونة العيش ، وشكوا الفقر فأكثروا ، وقال فى ذلك مطيع بن إياس :

حبّذا عيشُنا الذى زال عنا . حبذا ذاك ، ثم لا حبذا ذا
زاد هذا الزمانُ عسراً وشرًّا عندنا إذ أحلّنا بغداذا
بلدة تمطر الترابَ على النا س كما تُمطر السماء الرذاذا
خربت عاجلاً ، وأخرب ذو العر ش بأعمال أهلها كلواذا

ولقد انقطع أبو دلامة الشاعر الأسود الكوفى للخليفتين أبى العباس السفاح والمنصور ، وكانا يقدّمانه ويستطيبان مجالسته ونوادره، فلم يبلغا فى عطائهما ما فيه غَناء ومَقْنَع ، حتى قال أبو دلامة حين أحدث المنصورُ لُبْسَ القلانس الطوال كلمتَه الشاكيةَ المتهكمة :

وكنا نرجّى من إمامٍ زيادةً فجاد بطولٍ زاده فى القلانس !

ولما أن أنفذ الخليفة عزمَه فى قائد الثورة العباسية الأكبر أبى مسلم الخراسانى فقتله ، أنشد الشاعرُ الخليفةَ فى محفل من الناس قصيدةً عصماء ، فقال الخليفة مظهراً فى هذه المناسبة غايةَ التطوّل والانعام، متعمداً إشعار القوم بما للخلافة من عظمةٍ وسعةٍ ومقدرة : « احتكم » . فقال الشاعر : « عشرة آلاف درهم » ، فأمر له بها . فلما انصرف الناس وخلا به قال : « إيه ، أَمَا والله لو تعديتَها لقتلتُك » .

ولقد استقلّ المهدى نفسُه وهو ولىّ للعهد عطاءَ المنصور لإبراهيم بن هَرْمة حين أنشده قصيدته اللامية التى مدحه بها فكلمه فى ذلك : « يا أمير المؤمنين !

قد تـكلف فى سفره إليك نحوها » . ومهما يكن من احتجاج المنصور لذلك ، فالذى لا خلاف فيه أن القصد كان من شيمته وفى طباعه .

حتى إذا كان عهـد المهدى خرجتْ حياةُ الفن من الضيق إلى السعة . إذ كان الخليفة مبسوط اليد مبذول العطاء، لا يفتأ يتسخّى على أصحابه ومناديمه ووفوده من أهل الأدب والشعر ، فيأمر لهم بالخلع الفاخرة والمراكب الفارهة ، وبالجوائز المضاعفة تبلغ عشرات الألوف من الدراهم تحمل إلى منازلهم معجَّلة ، مما لم يسبق لغيره أن بلغ مبلغَه . وفى ذلك قال مروان بن أبى حفصة الشاعر :

بسبعين ألفاً راشنى من حبائه   وما نالها فى الناس من شاعرٍ قبلى

وقد بلغ ما أفاده الشعراء من بسطة الحال وسعة الرزق أن كان سلم الخاسر يأتى باب الخليفة على البرذون الفاره قيمته عشرة آلاف درهم بسرجٍ ولجامٍ مفضّضيْن ، ولباسه الخزّ والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحةُ المسك والطيب والغالية تفوح منه .

ثم إن المهدى لم يكن يقصر العطاء على مادحيه من طلاب الخير المتكسبين بالشعر ، بل كان يُسنى الجوائزَ ويُجزل النفحات لأهـل الفن ، حبًّا فى الفن . ومن ذلك ما يرويه حماد الراوية من أنه دخل على المهدى يوماً فقال له: « أنشدنى أحسنَ أبياتٍ قيلت فى السكْر ولك عشرة آلاف درهم ، وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف » فأنشده حماد أبياتاً للأخطل . فقال له: « أحسنت » وأمر له بما شرطه ووعـد به . فإذا ذكرنا أن المهدى لم يكن صاحب شرابٍ ، عرفنا مبلغ ما كان عليه من الشعور بجمال الفن فى ذاته .

فلا عجب إذا رأينا شاعرنا أبا نواس وقد أتم علمه واستوفى فنه وزادت على الثلاثين سنه ، يبادر إلى بغداد عروس المدائن وحضرة الخلفاء ، ليحظى فيها بما حظى به الشعراء . و إذا كان قد فاته عطاء المهدى ، فلا يفوتنه عطاء ولده الخليفة الأشهر هارون الرشيد . وما حلّ الفتى البصرى مدينةَ بغداد ورأت عيناه عِظَمَ أبهتها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا فيها وما يتوافر بها من أسباب النعيم واللذة لمن أسعده الحالُ وأمكنه المالُ ، حتى حزّ فى قلبه الحرمانُ وتمنى أن يكون له شأنٌ غير هذا الشان . وتلفّت حواليه فإذا بجانب هذا الثراء الطائل والنعمة السابغة ألوفٌ من الفقراء وذوى الحاجة ظاهرى الخصاصة وضعف المقدرة ، وقد ضاق بهم العيش فى هذه الجنة الناضرة الزاهرة .

عند ذلك أدركتْ هذا الفتى الماجنَ عزةُ النفس ونَزَتْ فى رأسه سورةُ الأنفة ، وعصفت فى صدره ثورةٌ منكرة ، فهو لن يرضى لنفسه هذا الهوان ولن يصبر على هذا الظلم والحرمان ، وهو مجمع عزمَه على طلب نصيبه من الدنيا وحظه من اللذة ، ولو تأدّى به الأمر إلى الخروج على السلطان والتمرد على النظام :

سأبغى الغِنَى ، إما جليسَ خليفةٍ	يقوم سواءً ، أو مخيفَ[1] سبيلِ
بكل فتًى لا يُستطار جنانُه	إذا نوّه الزَّحْفان[2] باسم قتيل
لِنَخْمس[3] مالَ الله من كل فاجرٍ	أخى بِطْنَةٍ للطيّبات أكول

(١) قاطع طريق (٢) الجيشان زحف أحدهما الى الآخر (٣) نأخذ خمس المال

ولقد كانت أمور الخليفــة كلها فى ذلك الحين إلى وزرائه البرامكة ، أمنائه على الدولة والمفوضين منه على مصالحها ، يستعملون و يعزلون من شاءوا ، و يرفعون و يخفضون من رأوا ، و يفرضون من الحقوق و يُسقطون ، و يحكمون فى كل شأن بما يرتضون . وهم أهلٌ لجميع ذلك ، بما كان لأبيهم من الرأى وحسن التدبير ، وما أوتوه عنــه من ارتياض على حسن السياسة ، ومصانعة الحوادث والنــاس . وكانت دورهم بالشماسية ـ فى الموضع المعروف بسويقة خالد ـ مناط الآمال ومحطَّ الرحال لطلاب المعالى والأقدار الرفيعــة من ذوى الطموح والهمة ، كما كانت سوقُ العـلم لديهم قائمةً نافقةً ، و بضاعةُ الأدب عندهم رائجةً رابحة . ومن ثمة أقبـل أبو نواس من أول الأمر عليهم ، ليملأ يديه من نوالهم الذى غمر شعراءهم ، وليـكونوا له إلى الخليفــة سببا . فمدحهم ولـكنهم لم يحققوا رجاءه كله. وكانت نقمته كلها على جعفر البرمكى، فأقذع فى هجائه لقلة عطائه دونهم، وتعمُّدِه سوء الشهادة فى شعره، ومدافعته إياه ما استطاع عن مجلس الرشيد . وقد اتصل أبو نواس فيمن اتصل بهم بولد المهدى وغيرهم من الهاشميين وكان ينادمهم و يلازمهم . وكان ممن نادمهم القاسم بن الرشيد ، ولقى القاسمُ منــه أشياء كرهها وكُرهتْ له ففارقه . وكذلك اتصل الشاعر بالفضل بن الربيع ، ثم انقطع له ولآله بعد أن استوزره الخليفــةُ على أثر نـكبة البرامكة .

ولم يكن النواسى ، مع اعتماده فى طلب العيش على الـكبراء وأربابه الدولة ، بالذى يتحاقر و يتهضّم نفسَه لهم و يستشعر الضعة والصَّغار فى ناحيتهم .

فقد كان يمنعه من ذلك شعوره القوى بما للفن الذى يعالجه من شأن وقيمة ، ومغالاته بما يجب للفنان من قدر وحرمة . ويظهر ذلك أجلى ظهور فيما يروى بعضهم من أنه كان مع شاعرنا قريباً من دور بنى نوبخت بنهر طابق وعنده جماعة ، فجعل يمرّ بأبى نواس القوّادُ والكتاب وبنو هاشم فيسلّمون عليه وهو متكئ ممدود الرِّجْل لا يتحرك لأحدٍ منهم . وإذا جلساؤه ينظرون إليه قبَضَ رجليْه ووثب ، وقام إلى شيخ قد أقبل على حمارٍ له . وكان الشيخ أبا العتاهية الشاعر ، فاعتنق أبا نواس . ووقف أبو نواس يحادثه ، فلم يزل واقفاً معه يراوح بين رجليه يرفع رجلًا ويضع أخرى ، حتى فرغ الحديث ومضى الشيخ .

ولقد حج الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة ومعه وزيره الفضل بن الربيع . وسعى فى ركاب الخليفة جماعة من الشعراء ، وحسبنا أن نذكر منهم أبا نواس ومحمد بن مناذر من المذكورين بالفسوق والمجون لنعلم أنه لم تكن بهم نية الحج، ولكنها الفرصة سانحة لمديح الخليفة الحاج واحتقاب عطائه . وكان ابن مناذر قد هيّأ فى مدحه قولًا أجاد تنميقه وتَنَوَّق فيه ، وكان الرشيد يسأل عنه ويطلبه ، وقد سبق أن وصله مراتٍ على مدائحه صلات سنيّة . فلما كان يوم التروية دخل الشاعر على الخليفة ، فبَدَره الفضل بن الربيع قبل أن يتكلم فقال: « يا أمير المؤمنين ، هذا شاعر البرامكة ومادحهم » . وقد كان البشر ظاهراً فى وجه الخليفة لما دخل الشاعر ، فتَنكّر وعبس فى وجهه .

وأضاف الفضل: « مُرْهُ يا أمير المؤمنين أن ينشدك قوله فيهم : أتانا بنو الأملاك من آل برمكٍ »، فأمره الخليفة أن ينشد. فلما أبى، توعده وأكرهه . فأنشد الشاعر القصيدة ، ثم أتبع ذلك بقوله: « كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين أيامَ مدحتُهم ، وفى طاعتك ، لم يلحقهم سخطُك ولم تحلل بهم نقمتُك . ولم أكن فى ذلك مبتدعاً ، ولا خَلا أحدٌ من نظرائى من مدحهم . وكانوا قوماً قد أظلّنى فضلُهم وأغنانى رفدهم، فأثنيتُ بما أولوا ». فلم يتم قولَه حتى كان الخليفة قد نادى « يا غلام ألطمْه على وجهه » . فلطموا الشاعر حتى سَدِر بصرُه وأظلم ما كان بينه و بين أهل المجلس . ثم أمر أن اسحبوه على وجهه وهو يقول . « والله لأحرمنك ، ولا تركتُ أحداً يعطيك شيئًا فى هذا العام » . فسحبوه حتى أُخرج وهو لا يعى ما حوله . فإذا بشاب قد وقف عليه ثم قال : « أعْزِزْ علىّ والله يا كبيرنا بما جرى عليك » ، ثم دفع إليه صرّة وهو يقول : « تبلَّغْ بما فى هـذه » . فظنها ابن مناذر دراهم ، فإذا هى دنانير تبلغ المائة وأكثر . فسأل ابن مناذر فى دهشته وهو لم يبصر بعدُ من عشوته : « من أنت ؟ جعلنى الله فداءك ». فقال هذا الأريحى : « أنا أخوك أبو نواس ، فاستعن بهذه الدنانير ، واعذرنى » . فقبِلها الزميل المنكوب وقال : « وَصَلَك الله يا أخى وأحسنَ جزاءك » .

ونحبّ أن نرجع بهذه المناسبة إلى ما وقع من ابن مناذر فى موسم للحج سابق ، إذ تنـازع شاعرنا والحسين بن الضحاك أيهما أشعر فى همزية لـكل

منهما أنشدها فى وصف الخمر ، فحكم ابن مناذر للحسين بأن قصيدته أفضل وأنه أشعر ، فقام أبو نواس منكسراً . فلاشك فى أن القارئ يرى معنا ما تنطوى عليه وقفةُ النواسى بعد ذلك مع زميله من غلبة روح الزمالة والترفع عن الشماتة . ومهما قيل من عَطَله من الفضائل الخلقية ، فان هذه وحدها فيه شاهدُ صدقٍ على وفور حظه من حساسيه الإنسان الحى ،وأريحية الشاعر الذى وُلد شاعراً .

وأخيراً نفرغ للكلام عن مبلغ علاقة أبى نواس بالخليفة هارون الرشيد. وفيها موضع خلاف كبير . فالذى يتقرر فى الأذهان من مطالعة قصص مثل « ألف ليلة وليلة » ، وكتب مثل « إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس » هو أن الشاعر كان أشبه بمضحاك للخليفة ، يتفكَّهُ بأحاديثه ونوادر أفاعيله . والمقرر فى أسفار التواريخ المعوّل عليها أن الذى كان مضحاكاً للخليفة ومحداثاً فكِهاً هو ابن أبى مريم المدنى ، فكان الرشيد لا يصبر عنه . وقد بلغ من خاصّته بالرشيد أن بوأه منزلاً فى قصره وخلَطه بحرمه و بطانته ومواليه وغلمانه . وكانت له نوادر وأفاعيل غاية فى الجرأة يضحك لها الرشيد ويذهب به الضحك حتى يكاد ينقطع نفسه . وهذا بعينه ما يحكى عن نوادر أبى نواس مع الخليفة هارون . وهى حكايات موضوعة أو على الأقل منسوبة إلى غير صاحبها . وقد قيل فى أول اتصال لأبى نواس بالخلفاء أن الرشيد قال ذات ليلة لهرثمة بن أعين: « اطلب لى رجلاً يصلح للحديث والسمر » . فخرج هرثمة فسأل فَدُلَّ عليه . فنادم الرشيد تلك الليلة وأجاز ما اقترحه من الشعر

بديهاً، فحسُن موقعه عند الرشيد ، وأمر له بمال . وكان ذلك سبب اتصاله به. وكان أبو نواس يحدّثه من قِبَلُ بنوادر الناس ، ولكن من غير أن يفكه بأعراضهم ، ثم أعرض عن ذلك . فقال له الرشيد ذات يوم : « حدثنا يا أبا نواس » . فقال : « لا يحضُرنى شىء » فقال الخليفة : « بحياتى إلا ما قلتَ شيئاً » قال : «كان الكذب علىّ ، واليوم هجرته يا أميرَ المؤمنين» . فضحك الرشيد وقال : «هذا أحبّ إلىّ من الحديث» . ويُرْوَى لأبى نواس مع الرشيد نوادر لا حصر لها ، وكلامٌ كثير من المجون والخلاعة ، ومِاجرياتٌ تدل على حضور بديهته وسرعة خاطره وظرفه وخفة روحه .

وقيل إنه إنما حصل على هذه المكانة عند الرشيد بأنه كان إذا بكّر إليه سأل خواصَّ أهل بيته عما يكون فى نفسه أو يكون جرى له فى ذلك الوقت، ثم ينشده أشعاراً لطيفة فى مطابقة ذلك فيطيب بها نفساً . فمنَ ذلك أنه كان يوماً مع الرشيد فى قصره، فعلم من بعض خدمه أنه دخل مقصورة جارية من جواريه على غفلة منها فوجدها تغتسل وقت الظهر ، فلما رأته تجلّلت بشعرها فأعجبه ذلك منها . فلما أن دخل أبو نواس تلك الليلة الى مجلس سمر الخليفة أنشده :

نَضَتْ عنها القميصَ لِصَبِّ ماء ... فورّد وجهَها فرطُ الحياء
وقابلتِ الهواءَ وقد تعرَّتْ ... بمعتدلٍ أرقَّ من الهواء
ومدّت راحةً كالماء منها ... إلى ماءٍ مُعَدٍّ فى إناء
فلما أن قضتْ وَطَرًا وهمّتْ ... على عجلٍ إلى أخذ الرِّداء

رأت شخصَ الرقيب على التّداني ... فأسبلتِ الظلامَ على الضياء
وغاب الصبحُ منها تحت ليلٍ ... وظلّ الماء يقطر فوق ماء
فسبحان الإله وقد براها ... كأحسن ما يكون من النساء

فنادى الرشيد على سبيل الاستغراب : « سيفاً ونطعاً ياغلام ! ». فقال الشاعر: « ولِمَ يا أمير المؤمنين ؟ » .فقال : « أمَعَنا كنتَ ؟ » قال : « لا ، وإنما شيء خطر لى بالبال فقلتُه » . فضحك الخليفة ثم أمر له بجائزة .

هذا وأمثاله يزعمه بعض الكتاب ويقيسون عليه ويضيفون إليه . فيجعلون لأبي نواس عند الخليفة هارون منزلةَ النديم الذي داخَله وخالطه وانبسط إليه وتكشّف معه ، حتى إنه أخذ المقام الأول بين الندمان وبنى لنفسه في نهر طابقٍ الدور التي لم يَبْنِ مثلَها عظماء الناس .

وعلى الضد من ذلك المترجمون الذين قيل انهم المحيطون علماً بأحوال أبي نواس . فهم يجزمون بأن هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد موضوعات ، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وإنما دخل على محمد الأمين ، وأنه ما ملك عشرين ألف نواةٍ ، فكيف بعشرين ألف درهم!

وأغلبُ الظن أن الفريقين ذهبا مذهبَ الغلوّ فى الوهم ، وأن القولين لا يَسْلَمان من المبالغة والسَرَف فى الجزم . ولكى نتبين وجهَ الرأى ، يحسن أن نتمثل حياة البلاط في ذلك العهد .

كان هارون فى تفويضه أمور الدولة وتدبيرها إلى البرامكة يجد من وقته

الفراغَ للتملّى بنعيم الأسرة ، بين زوجاته وأخصّهن بالمكانة عنده زبيدة ، وأمهات أولاده اللاتى يزدن على العشرين، وجواريه وهن زهاء الألفين نعرف منهن ضياء وهيلانة الرومية ، وأولاده وأنبههم عندنا ذكراً الأمين والمأمون وسائر أفراد بيته . وكذلك وجد الخليفة الفراغ للجلوس الى أهل الفقه والأدب ، وللخلوة بعد ذلك لمجلس المنادمة والشراب . وقد اشتهر بشرب النبيذ الذى كان يرخّص أهلُ العراق فى شربه . وفوق هذا جميعه كان يحتفل بإحياء أبهى ما عُرف فى بلاط الملوك من حفلات السماع يشترك فيها أعلام المغنّين والمغنّيات على أنواع المعازف والملاهى .

ولا عجب فأولاد المهدى كلهم من محبى الموسيقى لما كان يجتمع فى قصر أبيهم من القيان ، ولطول ما تردّد فى مجلسه من الغناء والألحان . وكان هارون يقرّب الشعراء ويحب المديح من شاعر فصيح ويجزل العطاء له . وكان مما يزيد فى سروره بالشعر وطربه عليه أن يُعمل فيه ما يوافقه من اللحن ويُغَنَّى له . ولكنه على كل حال كان من أحكم الناس بصراً بالشعر وأصحّهم تذوقاً لجيّده وأشدهم تأثراً به . فلا يمكن وهارون الرشيد بهذا الموضع أن يخفى عليه شأنُ شاعرٍ كأبى نواس وألا يلتفت الى براعة معانيه وحلاوة لفظه . وإذا كان المعقول لا يكفى ولا بد من منقول ، فالدلالة حاضرة فيما رواه إسحق الموصلى من تقديم الرشيد لشاعرنا مع ما كان من مماراة جعفر البرمكى فى أمره وتعصّب إسحق نفسه عليه وقتئذ لشىء جرى بينهما حتى صار لا يعدّ أبانواس

البتة ولا يرى فيه خيراً . ونزيد عليه هنا ما رواه كاتب الرشيد اسماعيل بن صبيح ، قال :

قال لى الرشيد : يا إسماعيل ! أبغنى وصيفةً مليحةً مقدودة شَكِلَة ، حلوة متكلمة ، ظريفة عالمة ، تسقينى ، فإن الشرب يطيب من يد مثلها » . فقلت : « ياسيدى ! علىّ الجهد » . فقال : « اجعلْ أمامك قول هذا العيّار — يريد أبا نواس — وامتثلْ فيها ما حدَّ فى مثلها لك » . قلتُ : « ياسيدى ! فما قوله ؟ » فقال الرشيد :

« من كفِّ ساقيةٍ نَاهيكَ ساقيةً ... فى حسن قدٍّ وفى ظَرْفٍ وفى أَدَبِ
كانت لربِّ قِيانٍ ذى مغالبةٍ ... بالكَشْخِ محترفٍ ، بالكشخ مكتسب
فقد رَوَتْ ووَعَتْ عنهن ، واختلفت ... ما بينهن ومَنْ يَهْوَيْنَ بالكتب
حتى إذا ماغلا ماء الشباب بها ... وأُفعِمَتْ فى تمام الجسم والقصب
وجُمِّشَتْ بخَفِىِّ اللحظ فانجمشتْ ... وجَرَّتِ الوعدَ بين الصدق والكذب
تمَّتْ فلم يرَ إنسانٌ لها شَبَهاً ... فيمن بَرا اللهُ من عُجْمٍ ومن عرب
تلك التى لو خَلَتْ من عَيْنِ قيّمها ... لم أقضِ منها ولا من حبّها أربى »

وأقطع مما تقدم فى تقدير الرشيد لشاعرنا ومعرفته لفضله ومغالاته بقدره ما رواه يوسف بن الداية ، قال : غاب أبو نواس عنا وعن إخوته غيبةً طويلة متصلة فلم نعرف له خبراً . وجعلنا نسأل عن أمره فلم نعلم له أثراً ، حتى مضى نحوٌ من سنة ، فظُنَّ أنه قُتل . وبلغ ذلك الرشيد فقال : « والله إن صحَّ أنه قتل لأقتلنَّ قاتله ولو كان محمداً ولدى . انظروا كلَّ من كان هجاه من الناس

فاكتبوا اسمه وارفعوه إلىّ » . فارتجّت لذلك بغداد . فلما كان على رأس الحول ، إذا نحن به قد وافى . فقلنا له : « يا أبا على ! قد غبتَ عنا هذه الغيبةَ فغممتنا وظَننّا بك الظنون » . قال : « كنتُ فى موضع أرتضيه وأشتهيه » . فقلنا له : « ألم تسمع بافتقادنا لك ، وقولِ الرشيد فيك ؟ » ولم يبق أحدٌ من إخوانه إلا عذله ، وقالوا : « إن فى هذا تعريضاً لنفسك للآفات » . فأنشأ يقول :

إنى لفى شغلٍ عن العالمين ... بالراح والريحان والياسمينْ

عند غزالٍ حَسَنٍ وجهُهُ ... قلبى حبيسٌ بهواه رَهين

ونذكر الى جانب ذلك حديث حسين بن الضحاك الشاعر — وقد كان وأبو نواس تِرْبَيْنِ نشأا فى مكانٍ واحد وتأدّبا بالبصرة وكانا يحضران فيها مجالس الأدباء متصاحبين — قال : « خرج أبو نواس عن البصرة قبلى وأقام مدةً ، واتصل بى ما آل إليه أمرُه ، وبلغنى إيثار السلطان وخاصته له ، فخرجتُ عن البصرة الى بغداد ، ولقيتُ الناس ومدحتُهم وأخذت جوائزهم وعُددتُ فى الشعراء ، وهذا كله فى أيام الرشيد ، إلا أنى لم أصل إليه » .

وأخيراً ما نقله بعض الرواة عن مطيع — وكان خادمًا للبرامكة ثم دخل بعدهم فى خدمة الرشيد — قال : كنتُ واقفًا على رأس الرشيد إذ دخل أبو نواس (وذلك بعد قفوله من رحلته الى مصر كما سيأتى) فقال له الرشيد : أنشدنى قولك فى الخصيب « محضتكمُ يا أهل مصر نصيحتى » فأنشده إياها ، فلما بلغ قوله :

فإن يك باقٍ إفكُ فرعونَ فيكمُ ... فإن عصا موسى بكفِّ خصيبِ

قال له الرشيد : ألا قلتَ : « فباقى عصا موسى بكفّ خصيب » ؟ فقال الشاعر : « هذا أحسن ، ولم يقع لى » .

وأحسبنا بعد هذا الذى سمعناه من الخبر المتواتر من مختلف المصادر لا نكون متعسفين إذا لم نستبعد دخوله على الرشيد ، ونحن نرجح ذلك بعد زوال البرامكة .

ولكن الذى لا نرجحه ونستبعده كلّ الاستبعاد هو ملازمتُه الرشيدَ ومنادمتُه له على الوجه الذى يقولون . فقد كان خلفاء بنى العباس حتى ذلك الحين – مع تفرّج مَن تفرج منهم ببعض اللعب واللهو – محافظين على وقار الملك . كما أن لهوَهم لم يكن كله لَهْوَ ترف . فقد كان المهدى مولعا بالصيد واللعب بالدّبّوق والصوالجة . وكذلك كان الرشيد يتصيد ويلعب بالصولجان فى الميدان ، إلى جانب لعبه بالكرة والطّبطاب ورَمْيه فى البرجاس بالنشاب مع احتفاله بشهود السباق وكلفه بالشطرنج . ثم انهم حتى فى خلواتهم للشرب واللهو كانوا كارهين للتبذّل وطرح الاحتشام . فالمهدى كان شديد الحب للنساء ، ومع هذا كان ينهى بشاراً عن الفحش فى الغزل ، وإذا حَنّ الى سماع شىء منه قال لبشار : « قلْ فى الحب شعراً ولا تُطِل ولا تُسَمِّ أحداً » .
وكذلك لما اتصل بالرشيد قول أبى العتاهية فى عتبة متغزلا :

ألا إن ظبياً للخليفة صادنى ومالى على ظبى الخليفة من عَدْوَى

غضب الرشيد وقال « أَسَخَر منا ، فعبث ! » . وأمر بحبسه وطال فى الحبس مكثُه . وكان المهدى يسمح لمنادميه فى مجلس السماع أن يشربوا

وإن كان لا يشرب ، ولكنه حين رأى إبراهيم الموصلى يشرب فى منازل الناس ، ويتبذّل معهم ويجيئه منتشياً ، أمر به فضُرب وحُبس . والرشيد على حبّه للتنعم واستمتاعه بألوان الترف كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، ويكثر من الخروج للحجّ ومعه مائة من الفقهاء ، وإذا لم يحج أَحَجَّ ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة . وكان يكره الخوض والمِراء فى الدين ، وتُسرع دمعتُه حتى تخضلّ لحيتُه لوعظ الواعظين .

وما دام أمر الخلفاء كذلك ، فليس يصح فى العقل اتخاذُهم لمثل أبى نواس جليساً ملازماً ، وإنما جاز لأبى نواس أن يكون ذلك النديمَ حين وَلِىَ الخلافة محمدٌ الأمين .

ولما كان الرشيد قد أصبح بعد نكبة البرامكة صاحبَ الأمر كله والمتصرف برأيه دون سواه ، والمطلق اليد فى خزائن الدولة والمتحكّم فى رقاب الرعية ، فقد أقبل أبو نواس يتحين المناسبات الرسمية ليمدحه فيمن كان يمدحه من الشعراء المنقطعين لذلك . وهو وإن لم يكن فى طبقتهم فى هذا الباب قد كانت له مع ذلك فى المديح أبياتٌ يعدونها من غرر الشعر وفرائده .

وقد نظم الشاعر فى انتصارات جيوش الخليفة فى آسيا الصغرى على جيوش الروم — حين قطع صاحبهم نقفور الجزيةَ — قصيدةً فى مدح الرشيد يقول فيها :

إنى حَلَفتُ عليك جهدَ أليّةٍ[1]   قسماً بكل مقصِّرٍ ومحلِّقِ

(١) القسم

لقد اتقيتَ اللهَ حقَّ تقاته | وجَهَدْتَ نفسك فوق جهد المتقى
وأخفتَ أهلَ الشركِ حتى إنه | لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخْلَق
وصناعةُ الشعراء إن أنفقتَها[1] | نَفَقَتْ، وإن أكسدتها لم تَنْفُق

وفى سنة ١٨٩ تمّ للرشيد أخذُ البيعة بولاية العهد لأولاده الثلاثة الأمين فالمأمون فالمؤتمن، واحداً بعد الآخر. فقال شاعرنا فى ذلك:

تبارك مَن ساس الأمورَ بعلمه | وفضّل هارونا على الخلفاء
نَزالُ بخيرٍ ما انطوينا على التقى | وما ساس دنيانا أبو الأمناء

ولما أن شخص هارون الرشيد إلى بلاد الروم لعشرٍ بقين من رجب عام ١٩٠ واتخذ قلنسوةً يلبسها مكتوباً عليها (غازٍ — حاجّ) تبارى الشعراء فى ذكر ذلك، فقال أبو المعالى الكلابى:

فمن يطلب لقاءك أو يُرِدْهُ | فبالحرمين أو أقصى الثغورِ
ففى أرض العدوّ على طِمِرٍّ[2] | وفى أرض الترفُّهِ فوق كور[3]

وكان شاعرنا أبو نواس ممن قالوا فى ذلك:

هارون ألّفنا ائتلافَ مودّةٍ | ماتت لها الأحقادُ والأضغانُ
فى كل عامٍ غزوةٌ ووفادةٌ | تنبتّ بين نواهما الأقران[4]
حجٌّ وغزوٌ مات بينهما الكرى | باليعملات شعارُها الوخدان[5]

---

(١) روجتها (٢) الفرس الجواد الطويل القوائم (٣) رحل البعير
(٤) تتقطع حبال المطايا (٥) اليعملات النوق المطبوعة على العمل السريعة السير.

والظاهر أن الشاعر لم يكن موفقاً فى هذا الميدان ، وأنه كان لغيره فيه قصبُ الرهان ، سواء أكان السبب قصور شعره أم غير ذلك من ماجريات أمره . فعزم على الخروج إلى مصر .

وكان الرشيد بعد نكبة البرامكة قد أراد استعمال قوم لم يعملوا معهم ، فقلد فيمن قلدهم من العمال على الأمصار الحسين بن جميل على ولاية مصر وذلك فى ١٩ شعبان سنة ١٩٠ ، وجعل على خراجها أبا النصر الخصيب بن عبد الحميد العجمى الذى تنسب إليه منية بنى خصيب المعروفة اليوم فى صعيد مصر بالمنيا . وكان الخصيب هذا رئيساً فى أراضيه ، فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازى ، ثم انتقل إلى إمارة الخراج على مصر كما روينا . والذى عليه الرواة أن الخصيب كتب إلى أبى نواس يستزيره وهو من خواصه فخرج إليه . وخرج فى وقت خروجه جماعة من الشعراء لامتداح الخصيب ، ولم يعرفوا خبر خروج أبى نواس ، حتى اجتمعوا بالرقّة . فقال بعضهم لبعض : « هـذا أبو نواس يمضى إلى الخصيب ، ولا فضل فيه لأحدٍ معه ، فارجعوا عن قُرْب » . وبلغ أبا نواس ما عملوا عليـه من الرجوع ، فصار إليهم مسلّماً ، ثم قال لهم : « قد بلغنى ما عزمتم عليـه من الرجوع ، فلا تفعلوا وامضوا حتى نصطحب ، فإنى والله لا أبدأ إلا بكم » . فشكروه ، وسكنوا إلى قوله ، ومضوا حتى قدموا مصر . واتصل خبرُ أبى نواس بالخصيب ، فجلس له جلوسا عامًّا فى مجلس جليل . ودخل أبو نواس إليه ، والشعراء فى دهليزه ، فسلم عليه وقال :

يا أيهـــــذا الملكُ المؤمَّلُ قد استزرت عصبة فأقبلوا
وعصبةٌ لم تستزرهم طفّلوا رجوك فى تَطفيلهم وأمّلوا
وللرجاء حُرمةٌ لا تُجهـــل فافعلْ كما كنت قديماً تفعل

فاستحسن الخصيبُ قولهُ وكلُّ مَن حضره ، وقال له الخصيب : « من شريكك ؟ » فعرّفه أبو نواس خـبر الشعراء ، فقال : « اجلس فقـدِّرْ لهم صِلاتهم ، على حسب مقاديرهم فى نفسك » . فقدّر أبو نواس لهم صِلاتهم ، وعرضها عليه ، فوقّع بإطلاقها ، فأُطلقت من وقتها . وقال له : « اخرجْ ففرّقها عليهم ، واصرفْهم » ففعل ذلك ، وعاد إليه .

واحتفل الأمير بالشاعر ، وأكرمه غاية الإكرام وقرّبه ورفع موضعه . ولما استقرّ به المجلس استنشده وكان عنده جماعة من الشعراء . فقال أبو نواس : « هنا جماعةٌ من الشعراء هم أقدم منى وأسنّ . فأْذنْ لهم فى الإنشاد ، فإن كان شِعرى نظيرَ أشعارهم أنشدتُ وإلا أمسكت » . فاستنشدهم الأميرُ فأنشدوا المدائح فيه . فتبسم أبو نواس وقد رأى أشعارهم غير مقاربةٍ لشعره . ثم قال : أُنشدك أيها الأميرقصيدةً هى بمنزلة عصا موسى تتلقّف ما يأفكون » . فقال : « هات » . فأنشده قصيدة طويلة من بلاغاته مطلعها :

أجارة بيتيْنـــا أبوكِ غيورُ وميسورُ ما يُرجَى لديك عسيرُ

وفى القصيدة عدا المديح المعتاد وصفٌ للقافـلة السيارة ورحلته معها من

العراق عابراً البيداء إلى البلاد الشامية قاصدًا مِصر . وقد أتى الشاعرُ فى هذه القصيدة على المنازل التى مرّ بها والبلاد التى حلّ فيها .

ولقد اهتزَّ الخصيب لما جاء على لسان الشاعر من المديح وأمر له بالجوائز السنية .

ويقال ان المصريين شغبوا فى هذه الأثناء على الخصيب لزيادة الأسعار واشتداد الغلاء . وماج الناس فى المسجد الجامع وقد تواعدوا أن يجتمعوا فيه . وبلغ ذلك الخصيب نفسه وهو على شربه وعنده أبو نواس . فقال الشاعر : «دعنى أيها الأمير أكلّمهم» . فقال الأمير: « ذاك إليك » . فخرج أبو نواس حتى وافَى المسجدَ الجامع ، فصعد على المنبر ، واعتمد على عضادتيْه ، وحوّل وجهه للناس وعليه ثياب مشمراتٌ ، فقال :

محضتكم يا أهل مصرَ نصيحتى ... ألا فخذوا من ناصحٍ بنصيبِ
ولا تثبوا وثب السَّفَاة (١) فتُحملوا ... على حدّ حامى الظهر غير ركوب (٢)
فإنْ يك باقٍ إفكُ فرعونَ فيكمُ ... فإن عصا موسى بكف خصيب
رماكم أميــر المؤمنين بحيّةٍ ... أكولٍ لحيات البلاد شَروب

فلما سمعها الجمعُ تفرّقوا فلم يبق منهم أحد .

ونظم الشاعر أكثر من قصيدة فى الخصيب ، نختمها بقوله :

أنت الخصيب وهذه مصرُ ... فتدفّقا فكلاكما بحرُ
النيل ينعش ماؤه مصراً ... ونداك ينعش أهلَه الغَمْرُ

---

(١) الحية (٢) يريد بهذا الوصف السيف

وقد أصدر الخليفة فى ٧ رجب سنة ١٩١ أمره لواليه على مصر الحسين بن جميل بأن يتولى كذلك أمر الخراج. فانتهت بذلك إمارة الخصيب. وعليه تكون إمارة الخصيب على خراج مصر من ١٩ شعبان سنة ١٩٠ إلى ٧ رجب سنة ١٩١ وتكون السنة التى قيل ان أبا نواس قضاها فى ربوع مصر واقعة فى هذه المدة.

ومدح أبو نواس فى مصر آل حديج وغيرهم ، فمَنْ حرموه عاد فذمّهم على عادة الشعراء . وكان يستحب من مصر جوّها السجسج ويقول غابطاً لأهلها « إن دنيا كم مستوية لا حرّ ولا برد عليكم . وإنكم تتصرفون فى حوائجكم سائر نهاركم فى أوله وآخره وفى وسطه ، وليس هذا لأحدٍ غيركم »، إلا أنه كان ممتلىء القلب رعباً من النيل لما سمعه من مزعجات القصص والأخبار عن تماسيحه . ولا نشك فى أنه قضى المدة التى قضاها فى مصر لم تنحدر به مركبٌ فيه ، ولعله لم يعرف حتى النزهة على شواطئه وحوافيه . وكيف لا يكون ذلك كذلك ، والشاعر يشهد على نفسه فى بعض شعره بأنه من خوف التماسيح لم يرَ النيل رأىَ العيان اللهم إلا فى القلال والكيزان :

أظهرتُ للنيل هجراناً ومقْليةً إذ قيل لى إنما التمساح فى النيلِ
فمَنْ رأى النيل رأىَ العين من كثبٍ فما أرى النيلَ إلا فى البواقيل

كما أنه كان يكره شراب مصر ولا يمكنه الخمرُ بها إلا ما كان يُحمل إلى الخصيب . وقد سقط من الشعر الذى قاله بمصر والشام كثير . ويحكى أنه لما انصرف من مصر مرّ بحمص فرأى كثرة خمّاريها ، وجودةَ الشراب بها ،

وتَرْكَ الشار بين لها كتمانَ شربها ، فأعجبه ذلك وكان قد طال بمصر حرمانه منه ، فأقام بها مدة مغتبقاً ومصطبحا . ثم مرّ بعانة فسمع اصطخاب الماء فى الجداول، فأقام فيها ثلاثاً يشرب من شرابها ويتغنى بقول الأخطل :

من خمر « عانة » ينصاع الفؤاد لها ‏ ‏ بجـدولٍ صَخِبِ الآذىّ موّارِ

فلما دخل إلى الأنبار تسرّع إلى بغداد وقال : « ما قضيتُ حقّ قُطربّل إن لم أبطؤ بها » . فعدل إليها ، فأقام ثلاثا حتى أتلف فضـلةً كانت معه من نفقته وباع رداءً مُعْلَماً من أردية مصر . وقال عند انصرافه من قطربّل :

طربتُ إلى قُطْرُبُّلٍ فأتيتُهـا ‏ ‏ بألفٍ من البيض الصحاح وعَيْنِ

ثمانين ديناراً جيـاداً أعدّها ‏ ‏ فأتلفتُها حتى شربتُ بدَيْنِ

رهنتُ قميصاً سابريًّا وجُبّةً ‏ ‏ وبعتُ إزاراً مُعْلَمَ الطرفَيْنِ

وقد كنتُ فى قطربّل إذ أتيتُها ‏ ‏ أرى أننى من أيسر الثقَلَيْنِ

فَرَوّحتُ عنها معسراً غير موسرٍ ‏ ‏ أُقرطس فى الإفلاس من مئتين

يقول لى الخمـــار عند وداعِه ‏ ‏ وقد ألبستنى الراحُ خُفَّى حنينِ

« ألا رُحْ بزَيْنٍ يومَ رُحتَ مودَّعاً » ‏ ‏ وقد رُحتُ منه يومَ رُحْتُ بشَينِ

وعلى هذه الحال من الشوق إلى حياة بغداد ، عاد شاعرنا إليها ليستأنف فيها باطله ولهوه بعد طول حنينه فى مصر إليها :

إذا ذُكرتْ بغدادُ لى فكأنما ‏ ‏ تحركُ فى قلبى شباةُ سنـانِ

وفى هذه الحقبة كان الخليفة هارون الرشيد يزيد مع السنّ والعلة شدةً

وتزمّتاً . وفوق ذلك فقد ذهب البرامكة ولم يغن عداتُهم غَناءهم ولم يقوموا مقامَهم ، فكان هو الناهض وحده بأعباء الحكم وضبط الأمور وتوجيه الجيوش لحرب الروم وقمع الفتن فى الأطراف . فكان من ذلك ما لوحظ على الرشيد من السرعة إلى الغضب وإنزال النقمة .

وقد أصاب الشاعرَ السكير الماجنَ من ذلك الكثير . فحبسه الخليفة فى المُطْبَق أكثر من مرةٍ لشربه الخمر مجاهراً بها متهتكا فيها . فكان يقضى وقته يعبث مع من يكون معه فى الحبس ويلاعبه الشطرنج والنرد . واتُّهم أبو نواس كذلك أكثر من مرةٍ بالزندقة . من ذلك أنه كان قد انصرف من بعض المواخير سكران ، فمر بمسجد قد حضرتْ فيه الصلاة . فدخل ، فقام فى الصف الأول ، فقرأ الإمام الآية « قل يا أيها الكافرون » ، فقال أبو نواس من خلفه « لبّيك » . فلما قُضيت الصلاةُ اندفع إليه المصلون ولبّبوه . وانتهى أمره إلى أن دُفع به إلى حمدويه صاحب الزنادقة . ولولا عِلْمُ حمدويه أنه ماجن وليس هو بحيث يُظَنُّ ، لكان قد قضى عليه .

وكان لبعض الأمراء وأصحاب الكلمة تِراتٌ عند أبى نواس لهجائه لهم . ومن هؤلاء سليمان بن جعفر بن أبى جعفر المنصور . وكان أبو نواس قد هجاه وحاف عليه ، ولم يعدل بعدها إلى مدحه ولم يرجع عن مكروهه . فاتفق أن جلس الرشيد مجلسا ، وأفاض مَن حضره فى ذكر المطبوعين من الشعراء المحدثين ، إلى أن اتصل الذكر بأبى نواس ، فغمز عليه سليمان بن أبى جعفر ،

فقال : « يا أمير المؤمنين ! كافرٌ بالله ، لا يرعوى من سكره ولا يأنف من فاحشة» . وقد كان نمى إلى الرشيد من خبره شىء . فقال: «يا عمّ ! هل تأثُرُ عنه من ذلك شيئا ؟ » . قال : « قوله يا أمير المؤمنين :

يا ناظراً فى الدين ما الأمرُ ؟ لا قَدَرٌ صحّ ولا جَبْرُ !
ما صحّ عندى من جميع الذى يُذكر إلا الموتُ والقبرُ

ثم قوله أيضا :

باح لسانى بمضمر السرِّ وذاك أنى أقول بالدهرِ
وليس بعد الممات مرتجعٌ وإنما الموت بيضةُ العُقْر

فاستشاط الرشيد غضباً وطار شِقَقاً وقال : « علىّ بابن الفاعلة » . فقال رجل من جلساء الرشيد : « إنْ أذِن لى أمير المؤمنين أنشدته من قول هذا الفاسق ما هو أشنع وأفظع مما أنشده أبو أيوب» . قال : « هات ! » قال : « قوله فى غلام نصرانى :

تمرُّ فاستحييكَ أن أتكلّما ويثنيك زهوُ الحسن عن أن تسلِّما
ويهتزُّ فى ثوبيك كلَّ عشية قضيبٌ من الريحان شَبَّ منعّما
بحسبك أن الجسم قد شفّهُ الضّنى وأن جفونى فيك قد ذرفت دما
أليس عظيماً عنــد كل موحِّدٍ غزالٌ مسيحىٌّ يعذِّب مسلما
فلولا دخولُ النار بعــد بصيرةٍ عبدتُ مكان الله عيسى بن مريما

فازداد حنق الرشيد عليه فقال : « يا أمير المؤمنين ! وأشنع من ذلك » .
قال : « هات ! » فأنشده قوله فى غلام نصرانى آخر :

ومُلحّةٍ بالعـذل ذات نصيحةٍ ترجو إنابة ذى مجونٍ مارقِ
بكرت تبصّرنى الرشاد وهمتى غير الرشاد ومذهبى وخلائقى
فأجبتُها : « كُفّى ملامَك إننى مختارُ دِينِ أقسّةٍ وجثالق
والله لو لا أننى متخوّفٌ أن أبتلَى . . . .

وقطع الإنشاد. فقال له الرشيد : « بماذا ويلك ! » . فاستعفاه ، فقال : « ويلك ! بماذا » فقال :

. . . . بإمام جورٍ فاسق

فضجّ المجلسُ بأهله ، وأنكر الرشيد نفسَه ، ثم قال : « امض » . فقال :

لَتَبِعْتُهُ فى دينه ودَخَلْتُهُ ببصيرةٍ منى دخولَ الوامق
إنى لأعلم أنّ ربى لم يكن ليخصّهم إلاّ بدينٍ صادق

فقال الرشيد للفضل : « برئتُ من المنصور إن لم يبت هـذا الكلب فى المطبق لتنكرنّي قولاً وفعـلاً » . وكان أبو نواس نمى إليه الخبر فساخ فى الأرض . فوجه الفضل من ساعته مَن أخذ بأفواه السكك ، فوُجد ، فأودع المطبق . ثم أعانه الفضل بن الربيع بعدها إلى أن أُطلق ، فقال فى ذلك :

الله فرّج لى برأ ى الفضل من حَلَق الكُبولِ
وأقالنى عَثَرَ العثا ر وقد أيستُ من المُقيل

وكان خاتمة المطاف ما أبلغ الى الرشيد من قوله يفتخر بقحطانِ التى يدعيها، ويسبّ عدنان ويهجوها فى قصيدة طويلة يقول فيها :

فافخرْ بقحطان غير مكتئبٍ فحاتمُ الجودِ من مناقبها
ولا ترى فارساً كفارسها إذ زلّت الهامُ عن مناكبها
واهجُ نزاراً وأفرِ جلدتها وهتّك الستر عن مثالبها

وكانت العصبية لا تفتأ تهيج بين اليمانية والنزارية كما يعلم قراء التاريخ العربى . وكانت فى ذلك العهد تهيج بالشام خاصة ، وقد بلغت فى بعض أطوارها هيجاً تشيب لهوله الولدان ، وقتل فيها خلق كثير . وكان الخليفة يلاقى كل مرة عنتاً فى إخمادها ، يوجّه لذلك القواد والعسكر الكثيف ، وكانت مع ذلك لا تسكن حتى تعود . فلما بلغت إلى سمع الخليفة قصيدة شاعرنا اشتد به الغضب . ولم يشفع للشاعر استثناؤه للنبى محمد دون سائر قريش « ذات المتاجر » فى هجائه للقبائل العدنانية ، ولا تنبيهه إلى أن شطر الخليفة يمانٍ من ناحية جدّته :

أحببْ قريشاً لحبّ «أحمدها» واعرفْ لها الجزْلَ من مواهبها
إن قريشاً إذا هى انتسبتْ كان لها الشطر من مناسبها
فأم مهدىٍّ هاشم ـ أمّ موسى الخير ـ منا ، فافخر وسام بها
إن فاخرتنا فلا افتخار لها إلا التجارات من مكاسبها
وإنها ـ إن ذكرتَ مكرمةً ـ جاءت تجاراتها بغالبها

وإذا كانت هذه الشفاعات لم تنفع الشاعر عند الخليفة ، فذلك أن الأمر كان يعدو شخصَ الخليفة الهاشمى القرشى إلى تعريض البلاد للفتن الداخلية .

فأمر الخليفةُ بالشاعر المنكود فأُلقى فى غيابة المطبق انتظاراً للموت فبقى فيـه دهراً . فجعل يتشفع بالوزير الفضل بن الربيع وهو لا يستطيع له شيئاً. فقال متحسراً لما صار إليه ، متندماً لما تورط فيه ، متسخّطاً على الفضل :

على مركبى منى السلامُ ، وبزّتى — وغدواتِ لهوٍ قد فقَدْنَ مكانى
فلو أن خِدْنَىَّ القريبيْن أبصرا — خضوعىَ للسجّان ما عرفانى
ولو أبصرانى . والقيود تقودنى — ومشيى الى البوّاب بالنجشان[1]
لحى الله من أمسى يرشّح نصرَهُ — بفكّ إسارٍ منـه عند يمانى
ومالى وقحطاناً وبثَّ مديحهـا — ونَصْبى لهـا نفسى بكلِ مكان
فإنْ أُمْسِ لا تُخْشَى لسيفىَ فتكةٌ — فلا تأمنْ يا (فضلُ) فتكَ لسانى.
وإنى لأرجو أن أراك كجعفرٍ[2] — ونصفاك فوق الجسر يقتسمان

وكتب إلى الحسين الخادم مولى هارون متزلفاً يرجو وساطته ، ويعلن لله توبتَه وإنابته :

تَلْقَى المراتبَ للحسينِ ذليـلةً — وإذا سواه يرومها تتصعّبُ
إنّ الإمام إذا اجتباك لسرّه — لَمُسَدَّدٌ فيما أتى ومصوّبُ
لم يَبْـلُ مثلَكَ عفّةً فيما بلا — وحزامةً فى كل أمرٍ يحزُبُ
وخلطتَ خوفَكَ للإله بخوفه — فعلمتَ ما تأتى وما تتجنّب

---

(١) النجش : الاسراع ، والمبالغة فى الثمن بقصد التغرير وإيقاع الغير

(٢) هو جعفر البرمكى الوزير وقد قتله الرشيد وصلبه ببغداد فجعل نصف جثته على الجسر الأعلى ونصفها على الجسر الأسفل ونصب رأسه على الجسر الأوسط

أبلغْ ـ هُدِيتَ ـ إلى الإمام رسالةً ... عنى بأنى بعدها أستعتب
وشهادتى أنى حليفُ عبادةٍ ... فابلوا على الأيام ذاك وجرّبوا

وكتب إلى عبيد الخادم مولى الملكة زبيدة :

جَعلتُ عُبَيْدًا دون ماأنا خائفٌ ... وصيّرتُه بينى وبين يد الدهرِ
أشار إليه الناسُ من كل جانبٍ ... وقالوا أبو عمرو لهـا وأبو عمرو

ثم التجأ الى الأمير الحسين بن عيسى بن أبى جعفر المنصور مستغيثًا مستصرخًا :

رَفَعَ الصوتَ فنادى ... يا أبا عيسى الجوادا
كُنْ عماداً ـ يا ابن مَن كا ... ن غِياثًا وعمـادا
وتداركْ جسداً قد ... مات أو قد قيل كادا
قُلْ له إن قال «هل تا ... ب ؟» «نعم تاب، وزادا»
واضمن التوبة عَنّ ... ي كلما أطراك عادا

ولما أعيته الحيلةُ ولم تنفع الشفاعةُ ، توجّه الى الخليفة نفسه ضارعًا مستغفراً ذاكراً محامدَه معدّداً مآثره :

بعفوك ـ لا بجودك ـ عُذْتُ لا بل ... بفضلك يا أميـر المؤمنينا
فلا يتعذّرنّ عليّ عفوٌ ... وَسِعْتَ به جميعَ العالمينا
فإنى لم أخنك بظَهْرِ غيبٍ ... ولا حدّثتُ نفسى أن أخونا
براك الله للإسلام عِزًّا ... وحصنًا دون بيضته حصينا
لقد أرهبتَ أهل الشرك حتى ... تركتهمُ وما يتذمرونا

تزورهم بنفسك كل عامٍ زيارةَ واصلٍ للقاطعينـا
ولو شئتَ اكتفيت إلى نعيمٍ وقاسى الأمرَ دونك آخرونا
فشفّعْ حسنَ وجهك فى أسيرٍ يدين بحبك الرحمن دينا
إذا ما الهولُ حلّ بدار قومٍ فليس لجار مثلك أن يهونا

ولكن الخليفة كان فى شغل عنه بتوجيه قوّاده هنا وهناك لمداركة الفتوق قبل اتساعها فى أطراف ملكه . ولقد شخص بنفسه مع اشتداد العلة عليه لحرب رافع بن ليث الثائر فى خراسان مصطحبا معه المأمون الذى جعلت له الولاية عليها ، وقد استخلف ابنه القاسم الملقّب بالمؤتمن على الرّقة وكان الخليفة قد اتّخذها مقرًّا له ونقل إليها خزائنه فى ذلك الحين ، واستخلف على بغداد عاصمة الخلافة ولىَّ عهده والخليفة من بعده محمداً الأمين .

نديم الأمين

كان محمد الأمين ببغداد حين ورد من صاحب البريد خبرُ وفاة والده العظيم هارون الرشيد فى غرة جمادى الأولى سنة ١٩٣ ، فى قرية بالقرب من طوس ، بعلّة فى حشاه كانت لا تزال تعاوده وهو يغالبها ويكتمها الناسَ كلهم. وتسلّم الخليفةُ الجديد الخاتم والقضيب والبردة ، وتحوّل من قصر الخلد وكان نازلاً فيه الى قصر الخلافة بالمدينة وهو قصر أبى جعفر . وأمر الناسُ بالحضور يومَ الجمعة ، فحضروا فصلّى بهم وألقى الخطبةَ التقليديةَ ، وتقبّل البيعة من جِلّة أهل بيته والقواد ورجال الدولة . وتقبّل عبد الله المأمونُ البيعة من الخراسانيين لأخيه ، ثم لنفسه من بعده ، وأقام على ما كان يتولى من عمل خراسان ، وتواترت كتبُه الى الخليفة بالتعظيم والهدايا إليه من طُرَف تلك البلاد من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح . وشخصت السيدة زبيدة من الرقة بجميع ما كان معها هنالك من الخزائن وغيرها الى بغداد ، فتلقّاها ابنُها الأمين خارج المدينة فى جميع مَنْ كان بالحضرة من الوجوه ، وأنزلها معه فى قصر الخلافة .

وكان الوزير الفضل بن الربيع مع الرشيد بطوس ، فلما مات الخليفة جمع الفضلُ جميع ما فى المعسكر مما أوصى به الخليفةُ الراحل للمأمون ، وانصرف بذلك كله الى بغداد وهو يقول : « لا أدع مُلكاً حاضراً لآخرَ لا يُدْرَى ما يكون من أمرِه » . وأغرى القواد والجند بالرحيل واللحاق بالأمين ، ففعل أكثرُهم محبةً منهم باللحوق بأهلهم ومنازلهم . فلما وافى الفضل بغداد عرف له الخليفةُ الجديد ما قدّمه فاستوزره .

وكان الأمين قد تلقى فى صباه على الكسائى وعلىّ بن المبارك الأحمر وغيرهما من المؤدِّبين ما يتلقاه أبناء الخلفاء من فنون العلم والأدب وقتئذ ، فأقرءوه القرآن ، وعرّفوه الآثار ، وعلّموه السُّنَن ، وروّوْه الأشعار ، و بصّروه بمواقع الكَلِم و بَدْئِهِ ، مع ما يجب على الخليفة العباسى من تعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه ، ورَفْعِ مجالس القواد إذا حضروا مجلسَه ، وما الى ذلك مما يكون فيه صلاح أمره واستيثاق ملكه، ومع ذلك كانت طبيعة اللهو هى الغالبة عليه ، وظلّ على ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركته النساء والإماء فى رأيه. ولو لا منزلة أمه زبيدة من هارون ، وميل بنى هاشم بأهوائهم إليه تعصبًا لوَلَد الهاشمية على ولد الفارسيّة ، لما جعل هارون ولاية العهد له قبل أخيه الأكبر المأمون .

فلما أن أفضتْ إليه الخلافةُ ، أصبح صبيحةَ السبت ـ أى بعد البيعة له فى بغداد بيوم، فأمر ببناء ميدانٍ حول قصر الخلافة فى المدينة للصوالجة واللعب. ولما أن جاءت الكتبُ من خراسان وسائر الأطراف بالبيعة ، واستتبت له

الأمور واطمأن باله من ناحية الملك ، وجّه فى طلب المُلْهين وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ، وطلب الخصيان وأبتاعهم وغالى بهم ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رَمَى بهن ، وصيّر الخصيان لخلوته فى ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمرِه ونهيه ، وفرض لهم فرضاً سمّاهم الجرادية ، وفرضاً من الحبشان سمّاهم الغرابية ، وكان يقضى أوقات لهوه وفراغه مع هؤلاء الخصيان فى المنادمة والشرب . وفى ذلك قال بعض الشعراء :

لهم من عمره شطرٌ وشطرٌ يعاقر فيه شربَ الخنْدَريسِ
وما للغانيات لديه حظٌّ سوى التقطيب بالوجه العبوس
إذا كان الرئيس كذا سقيماً فكيف صلاحُنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوسٍ (١) لعزَّ على المقيم بدار طوس

و بديهى ، وقد جلس الخليفة هذا المجلسَ للشراب بين الندمان والخصيان أن يجرى فى الجماعة ذكرُ المجون والمجان ، وأن تروى — فيما هم بسبيله — طرائفُ النوادر والأخبار ، وتنشد لطائف الأشعار. ولا نزاع فى أن النواسى كان أشهر خلعاء ذلك الزمان وأجراهم شعراً على كل لسان ، فلا جرم يتردد فى المجلس اسمه ويُستعاد شعره . والخليفةُ لاشك عندئذ ذا كَرُهُ ، فقد دخل عليه مع الكسائى فى بعض درسه ، وكان يغشى حضرتَه ويشترك فى منادمته أيامَ إمارته . فلما أن سأل الخليفةُ عنه ، قيل له : « محبوسٌ لمّا يَزَلْ فى المُطْبَق » فقالْ : « ليس عليه بأس » . ومضى إسحق بن فراشة وسعيد بن

---

(١) يريد الرشيد لدفنه بطوس

جابر أخو الخليفة من الرضاعة إلى أبي نواس فى محبسه فقالا له يُطَمْئِنانه : « إن أمير المؤمنين ذكرك البارحة فقال ليس عليه بأس ». فنظم الشاعرُ أبياتاً بعث بها إليه يصف حاله ويمدحه ويستعطفه :

أرِقتُ وطار عن عينى النعاسُ ونام السامرون ولم يؤاسوا
أمينَ الله ، قد مُلِّكتَ مُلْكاً عليك من التقى فيه لباس
ووجهك يستهلُّ ندًى فيحيا به فى كل ناحية أناس
كأن الخلق فى تمثالِ روحٍ له جسد ، وأنت عليه راسُ
أمينَ الله ، إن السجن بأسٌ وقد أرسلتَ ليس عليك باس

فلما أُنشدت الأبيات للخليفة فى مجلسه بالعشيّة قال : «صَدَق ، علىّ به» فجيء به فى الليل فكُسرت قيودُه وأُخرج حتى أدخل عليه، فأنشأ يقول وهو ماثل بين يديه :

مرحباً مرحبًا بخير إمامٍ صِيغَ من جوهر الخلافة بَحْتا
يا أمين الإله يكلؤك الله مقيماً وظاعنًا أين سرتا
إنما الأرض كلها لك دارٌ فلك الله صاحبٌ حيث كنتا

وسُرّ الأمينُ به وخلع عليه وجعله من ندمائه .

ومما يجب ذكره لأبى نواس شاهداً على طيب نفسه ، وسلامة صدره من الضغن الذى يُعمى ويُصمّ ، وارتفاعِه بحكمه عن الهوى ، أنه لم يغيّر رأيَه فى الرشيد بعد موته ، ولم يَخْلُ من حزنٍ عليه مع حبسه إياه، ولم يجحد إحسانًا

أسلفه إليه وأسداه . فنراه لا ينسى وهو يهنّئ الخليفةَ الجديدَ ويُظهر سرورَه به أن يبكىَ الخليفةَ الراحل ويذرى عليه دمعه :

جَرَتْ بجوارٍ بالسعد والنحسِ فنحن فى مأتم وفى عُرْسِ
القلب يبكى ، والسنُّ ضاحكة ، فنحن فى وحشة وفى أنسِ
يُضحكنا القائمُ الأمينُ ، ويُبْــكينا وفاةُ الإمام بالأمس
بَدْران ، بدر ضحًى ببغداد بالـ ـخُلْد ، وبدرٌ بطوس فى رمس

وقد عاد ثانية إلى رثائه فى قوله :

الناس ما بين مسرورٍ ومحزونِ وذى سقامٍ بكفِّ الموتِ مرهونِ
من ذا يُسَرُّ بدنياه وبهجتِها بعد الخليفةِ ذى التوفيق هارونِ

كما قال يعزّى الوزير الخطير الفضل بن الربيع ، عن موت مولاه القديم بحياة مولاه الخليفة الجديد ، بما لا يخرج عن قول أبناء زماننا « مات الملك ، ليحى الملك » :

تعزّ أبا العباس عن خير هالكٍ بأكرم حىٍّ كان أو هو كائنُ
حوادثُ أيامٍ تدور صروفُها لهنّ مَساوٍ مرةً ومحاسنُ
وَفى الحىُّ بالميت الذى غَيَّبَ الثرى ، فلا أنت مغبونٌ ولا أنت غابن

وكان الفضل ينزل فى بغداد فى الشارع الأعظم بإزاء درب السقائين ، وقد صارت الأمور كلها إليه وفوّض إليه الخليفة ما وراء بابه ، فهو الذى يولى ويعزل ويحلّ ويعقد عنه . واحتجب الأمين ، وفى ذلك يقول شاعرنا يمتدح الفضل :

لعمرك ما غاب (الأمين محمدٌ) عن الأمر يعنيه إذا شهد (الفضلُ)
ولولا مواريث الخلافة أنها له دُونه ما كانَ بينهما فضل
لئن كانت الأجسادُ فيها تباينتْ فقولهما قولٌ وفعلهما فعل
أرى (الفضل) للدنيا وللدين جامعًا كما السهم فيه الريشُ والفُوق والنصل

وذهب الأمين فى الاحتجاب حتى عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخفّ بهم ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلّى ورَقّة كلواذى وباب الأنبار وغيرها ، ونافس فى ابتياع فُرْه الدوابّ وأخذ الوحوش والسباع والطير . وحُمل إليه ما كان فى الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وانقطع عن تدبير المملكة مشتغلاً عنها باللهو واللعب ومعاشرة المجّان ، وقسّم ما فى بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر فى خصيانه وجلسائه ومحدّثيه .

ولما أن رأت الملكة الوالدةُ زبيدة ما كان من تقديم ولدها أمير المؤمنين للخصيان ورَفْعِه منازلهم مثل كوثر وغيره من خدمه وشدة شغفه واشتغاله بهم ، أرادت صرفَه عن ذلك ، فاتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعمّمت رءوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق ، فماست قدودهن وبرزت أردافهن . ثم بعثت بهن إليه ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن واجتذبن قلبَه وأبرزهن للناس فى مجالسه . فاتخذ الناسُ من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق . وامتلأت بغداد بهؤلاء الفتيات اللواتى كانوا يسمونهن « الغلاميّات » .

وكان للأمين كأبيه الرشيد تولعٌ بالغناء ، مع الفارق فى وقار الوالد ونزق ولده . وكان يُهيأ له فى قصر الخلد مجالس غناء يُتَغَنَّى فيها ، فيُرفع له دكانٌ عالٍ يُفرش له ويُبسط عليه بساطٌ زرعىّ ، وتُطرح عليه نمارق وفرشٌ فى لون البساط ، ويُصفّف له من آنية الفضة والذهب والجوهر أمرٌ عظيم . وتكون قيّمةُ جواريه قد هيأت له مائةَ جاريةٍ صانعةٍ ، فيَصعدن إليه عشراً عشراً بأيديهن العيدان يعزفن عليها وهن صاعداتٌ إليه ، وحين يستوين على الدكان يندفعن فى غناء لحنٍ من اللحون بصوتٍ واحد ، ثم ينزلن ويتقدم عشرٌ غيرهن ، وهكذا دواليكَ فى جوٍّ فاتنٍ ساحرٍ بما يتمايل فيه من القدود المليحة وما يتجاوب به من اللحون الفصيحة .

وكان يجزل العطاء لأساطين الغناء فى عهده أمثال إسحق الموصلى ومخارق وعلوية وغيرهم ، حتى ليروَى أنه استقدم إبراهيم بن المهدى عمّه فانحدر فى زورق إلى قصره ، وغنّاه صوتا طَرِب له الأمينُ فأمر أن يُوقِروا له زورقَه ذَهبًا .

كذلك استحدث الأمين حفلات للرقص كان يُديرها بنفسه فى أبهاء القصر الملكى ، فإذا الصحن مملوء شمعًا من الشمع الكبار وكأن الصحن من ذلك فى نهار ، وإذا الدار مملوءةٌ غلمانا ووصائف بحُلَل الوَشْى والجوهر ، وإذا الجوارى والمخنّثون يزمرون ويضربون ، والقيان يغنين على الطبول والسرنايات ، والجميع فى شىء واحدٍ ، ومحمد فى وسطهم يرتكض رقصًا فى الكرج . ولقد شهد مخارق وإبراهيم بن المهدى إحدى هذه الحفلات ،

وكان الخليفةُ وجّه مَن جاء بهما ركضًا . وقد جاء فى وصفهما لما مرّ بهما فى تلك الليلة ، أنهما لم يبلغا القصر حتى جاءهما رسول الخليفة فقال: «قوما فى هذا الباب مما يلى الصحن ، فارفعا أصواتكما مع السرناى أين بلغ ، وإيّاكما أن أسمع فى أصواتكما تقصيراً عنه » . فأصْغيَا للغناء المردّد :

هذى « دنانيرُ » تنسانى وأذكرها وكيف تنسى محبًّا ليس ينساها
واللهِ، واللهِ، لو كانت ـ إذا برزتْ ـ نفسُ المتيم فى كفّيْه ألقاها

فانطلقا يشاركان ، وما زالا يشقّان حَلقَهما مع السرناى ، ويتبعانه حذراً من أن يخرجا عن طبقته أو يقصّرا عنه . والخليفة الأمين يجول فى الكرج ما يسأمه ، يدنو إليهما مرةً فى جولانه ، ويتباعد مرة ، ويحول الجوارى بينهما وبينه ، حتى الغداة .

وكان محمد الأمين شديد المحبة للشراب قوىّ الاحتمال له ، يجدّ بندمائه فى الشرب ويسقيهمَ معظمَ الليل وعلى الريق . وكان إذا انتشى صاح فى ندمائه « مَن منكم يكون حمارى » فكلّ واحدٍ يقول « أنا » لأنه كان يركب الواحد منهم عبثاً ثم يَصِله . ولم يكن لأحدٍ غلبةٌ عليه فى الشرب غير أبى نواس .

ولقد أنشد أبو نواس الخليفةَ بوصفه شاعر البلاط قصائد عدةً فى مدحه . ولكن القارئ لها لا يلمس فيها من صدق الإعجاب بالممدوح ما يلمسه فى هذه القصيدة التى قالها للأمين كما يقول النديم للنديم :

ونَدْمانٍ يَرى غبناً عليــه ... بأن يُمسى وليس له انتشاء
إذا ناديتَه من نوم سكرٍ ... كفاه مرةً منكَ النداء
فليس بقائلٍ لك « ايه ، دَعْنى » ... ولا مستخبرٍ لكَ « ما تشاء ؟ »
ولــكن « يا اسْقنى » ويقول أيضاً ... « عليكَ الصِّرفَ إن أعياكَ ماء »
وذاك محمــدٌ تفديه نفسى ... وحقٌّ له وقــلَّ له الفداء

ولقد أجازه الأمين عليها بكل بيت ألف درهم .

وكان أبو نواس فى بعض الأحيــان لا يتورع حتى فى مدائحــه الرسمية للخليفة الشاب أن يشير إلى منادمته له وشربه معه . من ذلك قصيدته الأولى فى مديحه وهى المطولة المشهورة التى مطلعها :

يا دارُ ، ما فعلتْ بكِ الأيامُ ... ضامتكِ ، والأيام ليس تُضامُ

وهو مطلعٌ فى وصف الرسومِ والديار ، تجىء بعده أبياتٌ فى طىّ الفيافى وتجشّم الأسفار من أجل الممدوح جرياً على المذهب التقليدى . ولــكن الشاعر النديم لا يلبث أن تغلب عليه نزعتهُ فيجرى على طبعه ويخلص إلى طريقته :

ملكٌ أغرٌّ إذا شربتَ بوجهه ... لم يَعْدُكَ التبجيلُ والإعظامُ
فالبَهْوُ مشتملٌ ببدرِ خلافةٍ ... لَبِس الشبابَ بنوره الإسلام
إن الذى يرضى الإله بهدْيه ... ملكٌ تردّى الملكَ وهو غلام

وليس أكثر مما يروونه من استغراق الخليفة محمــد الأمين فى اللهو والشرب ، وإظهاره الإهمال لشؤون الملك ، حتى كانت تمر السنةُ لا يَفرغ

فيها ساعةً للنظر في أخصّ الأمور، كأعمال الخراج والضياع ومتصرّفات الحكام.
دخل عليه يوماً اسماعيلُ بن صبيح كاتبه ، فإذا هو عازمٌ على الاصطباح،
وقد أحضر الندماء والمغنّين وصُفّت الموائد، وأقبل الخليفةُ على مائدته وابتدأ.
فقال إسماعيل بن صبيح : « يا أمير المؤمنين ، هـذا هو اليوم الذى وعدتنى
فيه أن تنظر فى أعمال الخراج والضياع وجماعات العمال ، وقد اجتمعتْ علىّ
أعمالٌ منذ سنةٍ لم تنظر فى شىء منها ، ولم تأمر فيها ، وفى هذا دخولُ خلل
فى الأعمال ». فقال له محمـد : « إن اصطباحى لا يحول بينى و بين النظر ،
وفى مجلسى من لا أنقبض عنه ، من عمّى و بنى عمّى و إخوتى ، وهم أهل هذه
النعمـة التى تجب أن تُحاط ، فأحضرْ ما تريد عرضَه ، فاعرضْه علىّ وأنا
آكل، لأتقدم إليك فيه بما تحتاج إليه ، إلى أن يُرفع الطعامُ ثم أُتم النظر
فيما يبقى ، ولا أسمع سماعاً أو أُبرمَ الباقى وأفرغَ منه . فحضر كتابُ الدواوين
بأكثر ما فى دواوينهم ، وأقبـل إسماعيلُ بن صبيح يقرأ عليهم ومحمد يأمر
و ينهى بأحسن أمرٍ ونهيٍ وأشدّه، وربّما شاور مَنْ حوله فى الشىء بعد الشىء،
وكلما وقّع فى شىء وُضع بالقرب من اسماعيـل بن صبيح . ورُفعت الموائد ،
ودعا بالنبيذ ، وكان لا يشرب فى القدح أقلّ من رطل واحدٍ فى تتميم العمل،
ثم دعا بخادم له ، فناجاه بشىء أسرّه إليـه ، فمضى ثم عاد ، فلما رآه نهض
واستنهض سُلَيْم بن على وابراهيم بن المهدى ، فمـا مشوا عشر أذرعٍ ، حتى
أقبـل جماعةٌ من النفّاطين ، فضربوا تلك الكتب والأعمال بالنار ، وكان

الفضل بن الربيع حاضراً . فلحق محمداً وقد شق ثوبه وهو يقول : « اللهُ اللهُ . أعدلُ من أن يَرْضَى ذلك » ومحمدٌ يضحك .

وكان الوزير الفضل بن الربيع تساوره المخاوف ، إن وافى الأمينُ أجله ووَلِيَ الخلافةَ المأمونُ أن يجزيَهُ شرًّا بفعلته . فجعل يُزيّن للأمين صَرْفَ ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى ، وهو يومئذ طفلٌ صغيرٌ لا يعرف حسناً ولا يعقل قبيحاً ، ولا يخلو من الحاجة إلى من يخدمه فى ليله ونهاره ويقظته ومنامه وقعودِه وقيامه . ومن ثمة وقع الخُلْفُ بين الأمين والمأمون ومَكَرَ كلٌّ واحدٍ منهما بصاحبه ، واستشرى الفساد واشتدت العداوة بين الأخوين . فقُطعت الدروبُ من بغدادِ إلى خراسان وفُتشت الكتبُ وصَعُبَ الأمر . وفى شهر ربيع الأول عام ١٩٤ عقد الخليفةُ لابنه « موسى » على جميع ما استخلف عليه وأسقط اسمَ المأمون من الخطبة فى بغداد وقبض على وكلائه . وكذلك فعل المأمون بخراسان . ونما الشرُّ بينهما . و بقدر ما كان عند المأمون من التيقظ والضبط كان ما عند الأمين من الإهمال والتفريط والغفول . وسارت الركبان بغدر محمد الأمين بأخيه وقبح سيرته ، مع حُسن سيرة المأمون وما كان يُظهره من الورع والدين . فاستوحش الناس من الأمين وانحرفوا عنه . وفى سنة ١٩٥ جهز الخليفةُ عليَّ بن عيسى بن ماهان ومعه عسكرٌ كثيفٌ وسلاحٌ كثيرٌ وأموال وافرة . وخرج معه الخليفة مشيِّعاً مودِّعاً . ثم تشاغل بعدها بلهوه و بطالته وتخلى عن كل تدبير للقائد والوزير . وشخص عليٌّ بن عيسى إلى حرب المأمون فلاقاه قائده طاهر بن الحسين ظاهرَ

مدينة الريّ، فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت الغلبة فيه لطاهر وقتل عليّ بن عيسى.

وكان ذلك جميعه ، والأمين فى غفلةٍ سادرٌ فى لذته ، منهمكٌ فى لعبه. متفرغٌ لصيده ونزهته . حتى ليروى أنه حين ورد نَعْيُ عليٍّ قائدِه ، كان فى وقته ذلك على شطّ دجلة يصيد السمك . فقال للذى أخبره « ويلك ! دعنى ، فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدتُ شيئاً بعد » . على أن الأمين لم يلبث أن أفاق للخطر ، لمّا شاع الخبرُ بأن المأمون أعلن خلعه بعد أن أتاه كتاب قائده بالعز والنصر ، ودعا بالخلافة لنفسه فى جميع كور خراسان وما يليها ، فجعل الأمينُ يتابع إرسالَ الجيوش والقواد واصطنع فى أموره شيئاً من الجد .

وجعل الأمين يحمل على نفسه فيخرج لقوّاده وجنده وعامّةِ رعيّته بين الفينة والفينة ، وقد ساءت ظنونهم وكَبُر عندهم ما يرونه من احتجابه عنهم . فكان يجلس لهم بعضَ الأحيان ساعةً من نهارٍ ، وبين يديه الفضلُ بن الربيع وزيره واسماعيل بن صبيح كاتب سره ، ليكون ذلك تسكيناً لهم ومراجعةً لآمالهم . وكان إذا جلس فى مجلسه هذا أَذِنَ للناس عامةً ، فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبوا والشعراء فأنشدوا . بيد أنه لم يكن أحدٌ منهم يتعدّى إلى الاطناب والتطويل إلا أُمِر بالسكوت ومُنع من القول . وفى هذه المناسبات أنشد أبو نواس مدائحه القصار فى الخليفة الأمين ، نذكر منها قوله :

ألا يا خيرَ مَنْ رأت العيونُ   نظيرُك لا يُحَسّ ولا يكونُ

وفضلك لا يُحَدُّ ولا يُجارَى ولا تحوى حيازتَه الظنونُ
فأنت نسيجُ وحدِكَ لا شبيهٌ نُحاشيه عليك ولا خدين
خُلقتَ بلا مشاكلةٍ لشيء فأنتَ الفَوْقُ ، والثقلان دون
كأنَّ المُلْكَ لم يكُ قبلُ شيئا إلى أن قام بالملك الأمين

وكان الخليفة قد أمر بعمل خمس حرّاقات فى دجلة على خلقة « الأسد » و « الفيل » و « العقاب » و « الحية » و « الفرس » ، وأنفق فى عملها مالًا عظيماً ، وقد اتخذها للنزهة ، وكان إذا خرج لركوبها اصطفت له الخيلُ وعليها الرجال على شاطىء دجلة ، وحُملت معه المطابخ والخزائن . وفى مرةٍ من هذه المرات كان ركوبُهُ إلى الشماسية فى الحرّاقة التى على مثال الأسد . فما رأى الناس منظراً ولا مسيراً كان أبهى وأحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه فقال :

سخّر الله للأمين مطايا لم تُسخَّرْ لصاحب المحرابِ
فإذا ما ركابُهُ سِرْنَ بحراً سار فى الماء راكبًا ليْث غاب
أسداً باسطًا ذراعيْه يعدو أهْرَتَ الشِّدْق كالحَ الأنياب
لا يعانيه باللِّجام ولا السَّو ط ولا غمْزِ رجله فى الرِّكاب
عجِب الناسُ إذ رأوكَ على صُو رةِ ليثٍ تمرّ مرَّ السحاب
سبَّحوا إذ رأوكَ سِرْتَ عليه كيف لو أبصروكَ فوق العُقاب
ذاتِ زَوْرٍ ومِنْسَرٍ وجَناحـ ـين تشقُّ العُبابَ بعد العُباب
تسبق الطَّيْرَ فى السماء إذا ما اسـ ـتعجلوها بجَيْئةٍ وذهابِ

بارك الله للأمين وأبقا ه وأبقى له رِداءَ الشباب
ملكٌ تقصُر المدائح عنه هاشمِيٌّ موفَّقٌ للصواب

ولأبى نواس غير هذه قصيدة أخرى فى حرّاقة على مثال الدلفين، مطلعها :

قد ركب الدلفينَ بدرُ الدجى مقتحماً فى الماء قد لجّجا

ولما كان أبو نواس فى مجاهرته بالمعاصى وتهتكه فى السكر قد شاعت له سمعةٌ قبيحةٌ ، واشتهر بشهرةٍ فاضحة ، فقد وجد دعاةُ المأمون فى منادمته للأمين واختصاصه به وجهاً من أوجه الحيلةِ للزراية على خليفة بغداد والعيب عليه باحتماله إياه . فكان وزيرُ المأمون الفضلُ بن سهل ذو الرياستين يخطب بمساوئ الأمين ويحرّض الناس على قتاله ، وقد أعدَّ رجلاً يحفظ شعرَ أبى نواس فيقول: « ومِن جلساء محمد الأمين رجلٌ ماجنٌ كافرٌ مستهزئٌ يقول كذا وكذا » ويُنشد قولَه :

أَلا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمرُ ولا تسقنى سرًّا إذا أمكن الجهرُ

وينشد قوله :

يا أحمدُ المرتجَى فى كل نائبةٍ «قُمْ سيدى نَعْصِ جبّارَ السموات

وغير ذلك من قبائح شعره ومجونه . ويذكر أهلَ العراق فيقول : « أهل فسقٍ وفجورٍ ، وخمورٍ وماخور » . فيلعنُهم مَن يحضر المجلسَ من أهل خُراسان . فكتب بذلك إلى محمد الأمين عيونُه ، فجزع لذلك وأراد التنصلَ من التبعة وإسقاط الحجة ، بأن يظهر غضبَه على الشاعر ويُنزل به نقمته . وكان قد اتصل به عنه أبياتٌ أحفَظَتْه عليه ، منها قوله وهو سكران :

إسـقنيها يا ذفافه مُزَّةَ الطعم سُـلافه
ذَلَّ عنـدي من جفاها لرجاءٍ ومخـافه
مثـلَ ما ذلّتْ وضاعتْ ـ بعد هارون ـ الخلافه

ومنها قوله مفاخراً وهو بحالٍ من العسر والحاجة :

وقد زادنى تيهًا على الناس أننى أرانىَ أغناهُمْ وإن كنتُ ذا عُسْرِ
ولو لم أنل فضلاً ، لـكانت صيانتى فَمِى عن جميع الناس حَسْبِى من الفخر
ولا يطمعنْ فى ذاك مِنّىَ طامعٌ ولا صاحبُ التاج المحجّب فى القصر

فبعث الأمين بإحضاره ، وعنده أعدى أعدائه سليمان بن جعفر بن أبى جعفر . فلما أُحضر الشاعر ومَثَل بين يدىْ الخليفة بادره : « يا بن اللخنـاء العاهرة » وشتمه أقبح الشتم . وقال: « أنت تتكسب بشعرك أوساخَ أيدى جميع الناس، ثم تقول (ولا صاحب التاج المحجّب فى القصر) . أما والله لا نلتَ مِنّى شيئا أبداً » . فقال سليمان: « وهو والله يا أمير المؤمنين من كبار الثنوية » فقال الخليفة: « أيشهد عليه بهذا أحدٌ ؟ » فاستشهد سليمان جماعةً شهدوا عليه بالشرب والفسق . فوجّه به الخليفـة إلى الفضل بن الربيع وأمره بحبسه مع قومٍ كانوا يُتهمون بالزندقة .

وطال حَبْسُ أبى نواس فى المطبق ، حتى يئس من عفو الأمين ، ولم تبق له بارقة أملٍ فى الخلاص إلا بدخول المأمون . وذلك فى قوله :

يا ربِّ إن القوم قد ظلمونى وبلا اقترافِ معطِّلٍ حبسونى
والى الجحود بما عليه طويتى بالزور والبهتان قد نسبونى

ما كان إلا الجرىُ فى ميدانهم فى كل خزىٍ ، والمجانة دينى
لا العذرُ يُقْبَل لى ، ويَفْرَقُ شاهدى منهم ، ولا يرضون حلف يمينى
أما الأمين فلستُ أرجو دفعَه عنى ، فمَنْ لى اليوم بالمأمون!

وكان للفضل بن الربيع خالٌ يعرض أهلَ السجون ويتفقّدهم ويتعهّدهم ، فدخل إلى حبس الزنادقة الذى فيه أبو نواس ، ولم يكن يعرفه ، فقال له: « يا هذا أنت مع الزنادقة ؟ ». فقال له أبو نواس: « معاذ الله » . فقال له: « فلعلك ممن يعبد الكبش ؟ » . فقال له: « أنا آكل الكبشَ بصوفه» . فقال له: « فلعلك تعبد الشمس ؟ » .فقال له: « إنى لأتجنب القعودَ فيها بغضاً لها» . فجاء إلى الفضل فقال له: « يا هذا ! لا تُحسنون جِوارَ نِعمَ الله بحبس الناس بغير جُرْم » . فقال الفضل : « وما ذاك ؟ » فخبّره الخبر . فضحك منه ، ودخل على الخليفة فأخبره وشفع إليه فيه . فدعا به ، وأمر باستحلافه وأَخْذِ العهد عليه أن يجتنب الخمرَ والسكر .

ولزم أبو نواس بيتَه من خوف المطبق ، وظلّ على ذلك أياماً يُظهر التوبةَ ويتذرّع بالنسك والتقوى . وإلى القارئ الصورةَ التى يُمثّلها لنفسه كما يريده الخليفةُ ووزيره على أن يكون ، وهى ـ وإن تكن صورةَ ناسكٍ متبتّلٍ ـ لا تكاد تُخفى ما وراءها من التهكم على النسك والسخر بالناسكين :

أنت يا بن الربيع ألزمتنى النـ سكَ وعودّتنيه ، والخيرُ عاده
فارعوَى باطلى ، وأقصر حبلى وتبدّلتُ عفـةً وزهاده
لو ترانى ، ذكرتَ للحسن البصـ رى فى حسنِ سَمْتِهِ ، وقتاده

المسابيحُ فى ذراعَىَّ ، والمصـ حف فى لَبَّتى مكانَ القلاده
وإذا شئت أن ترى طرفةً تَعـ جب منها ، مليحةً مستفاده
فادعُ بى ـ لا عدمتَ تقويمَ مثلى ـ وتَفَطَّنْ لموضع السجَّاده
تَرَ أثراً من الصلاة بوجهى توقن النفسُ أنها من عباده
لو رآها بعضُ المرائين يوماً لاشتراها يُعِدّها للشهاده
ولقد طال ما شقيتُ ولكن أدركتنى على يديك السعاده

وكان الفتيانُ يتعرضون لأبى نواس للشرب معه ، وهو يستعفيهم ويعتذر إليهم . فقال بعضهم: « وإن لم تشرب فآنسنا بحديثك » . فأجاب ، وحضر مجلسَ شرابهم . فلما دارت الكأس بينهم عادوا يعزمون عليه ويستهوونه : « ألم ترْتَحْ لها ؟ » . قال : « نعم والله ! ولا سبيل إلى شربها » وأنشأ يقول :

أيها الرائحان باللوم ، لُوما لا أذوق المدامَ الا شميما
نالنى باللام فيها إمامٌ لا أرى فى خلافه مستقيما
فاصْرِفاها إلى سواىَ ، فانى لستُ إلّا على الحديث نديما
إنّ خطى منها إذا هى دارتْ أن أراها وأنْ أشُمّ النسيما
فكأنى وما أحسّنُ منها ـ قعَدِىٌّ يزيِّن التحكيما
كَلَّ عن حمله السلاح إلى الحربْ فأوصى المطيق ألا يقيما

على أن النواسى لم يلبث أن غلب عليه طبعهُ ونازعته إلى الخمر نفسُه . وكيف يتنكر لها أو يسلو عنها وإنه ليحسّ بينه و بينها نسباً شابكاً ورَحِماً ماسّة ، فهو تارةً ابنُها ، وهى تارةً شقيقةُ روحه :

أنا ابن الخمر ، مالى عن غذاها ـ إلى وقت المنية ـ من فطام

لائمى فى المدام ـ غيرَ نصوح ـ لا تلمنى على شقيقة روحى

فعاد التائب السكّير لسيرته الأولى فى المواخير ، عاكفاً على بنت الدنان من جديد عكوفاً ما عليه من مزيد ، ووقف عليها أوقاته يُعوّض منها ما فاته .

ورُفع ذلك إلى الخليفة فأمر به فحُبس ثلاثة أشهر . وقد حكى صاحبُ الشرطة أنه لما حُبس أبو نواس ، كان أكثرُ من يزوره فى حبسه المُرْدَ والشبّان ، والخمارين ، وأصحاب الريبة . ويقول صاحب الشرطة إنه عرف منهم وقتئذ من لم يكن عرفه من قبل ذلك ، فجعل عليهم الضرائب ، ثم فَقَد ذلك لما أُطلق الشاعر لتفرّقهم . وأخيراً دعا الخليفةُ به وحوله بنو هاشم وغيرهم ، وكان قد دعا بالنطع والسيف يهدده بالقتل . فأنشد أبو نواس هذه الأبيات مستعطفا :

تذَكَّرْ أمينَ الله ـ والعهدُ يُذكَرُ مُقامى وإنشاديك والناسُ حُضَّرُ

ونَثْرى عليكَ الدرَّ ، يا دُرَّ هاشمٍ ! فيا مَنْ رأى دُرًّا على الدرّ يُنثَرُ !

أبوكَ الذى لم يملك الأرضَ مثلُه وعمُّك موسى الصفوةُ المتخيَّرُ

وجَدُّك مهدىُّ الهدى ، وشقيقُه أبو أمك الأدنى أبو الفضل جعفر

ومَنْ مثلُ منصورَيْك : منصورِ هاشم ومنصور قحطانٍ إذا عُدَّ مَفخرُ

فمن ذا الذى يَرمى بسهميْك فى العلا وعبدُ منافٍ والداك وحمير

تحسّنتِ الدنيا بوجهِ خليفةٍ هو البدرُ إلا أنه الدهرَ مُقمر

أيا خير مأمولٍ يُرَجَّى : أنا امرؤٌ أسيرٌ رهينٌ فى سجونك مُقبرَ
مضت لى شهورٌ ـ مذ حُبستُ ـ ثلاثةٌ كأنى قد أذنبتُ ما ليس يُغفر
فإن كنتُ لم أُذنب ، ففيمَ حبستنى وإن كنتُ ذا ذنب فعفوك أكبر

فقال له الخليفةَ : « فإن شربتَها؟ » قال : « دمى لك يا أمير المؤمنين » فخلَّى سبيلَه .

والظاهر أن تهديدَ الخليفة فى هذه المرة قد أفزعه وروّعه . فقد ظل زمنًا يرفض الخمر، وكلما همّ بالمخالفة ذكر موقفه بين النطع والسيف، فقال يخاطب نفسه:

أَطِعِ الخليفةَ واعصِ ذا عَزْفِ وتنحَّ عن طَرَب وعن قَصْفِ
عينُ الخليفـة بى موكَّـلةٌ عَقَدَ الحِـذارُ بطرفه طرفى
صحّت عـلانيتى له ، وأرى دينَ الضمـير له على حَرْفِ
فلئن وعدتُكَ تركَهَا عِدَةً إنى عليك لخـائفٌ خُلْفِى

وهو يذكر فى أسفٍ لا يخفى كيف كان يغدو إلى حوانيت الخمر فيملأ زقَّه من صفوها قبل الزقاق ، ويحوز قبلها قصَبَ السباق . ولـكن ما الحيلة وهذا أمر ملك العراق، قد جعل هلاكه فى كفّ ساقٍ :

أعاذلُ ، لا أموت بكفِّ ساقٍ ولا آبَى على ملك العراقِ
هجرتُ له التى عنهـا نهـانى وكانت لى كممسكة الرّماق
وقد يغدو إلى الحانوت زِقّى فيأخـذ عَفْوَهُ قبـل الزِقاق
وكنَّ إذا نزعن إلى مـداه حوى ـ قُدّامها ـ قصَبَ السباق

على أن الشاعر وإن يكن قد أقلع عن الخمر لم يكفّ عن ذكرها واللهَج بأوصافها :

لولا الأميرُ ، وأنَّ العذرَ منقصةٌ   والعار بالعذر عنـدى أقبحُ العارِ
جاءت بخاتمهـا من بيت خمّار   رُوحٌ من الكَرْم فى جسمٍ من القار
فالريحُ ريحُ ذكىِّ الأذفر الدارى   والبَرْدُ بَرْدُ الندى ، واللون للنار

ولكن هذا لم يُرْضِ أُولى الأمر ، فشدّدوا عليه فى ترك التغنّى بالخمر . فكأنما قُضِى على هذا الثائر على مذهب العرب فى الشعر، الساخر من أوصافهم للطلول والقفر ، أن ينعتها وإن يكن كارهاً لها :

أَعِرْ شعرَكَ الأطلالَ والدِّمَنَ القَفْرَا   فقد طال ما أزرى به نعتُكَ الخمرا
دعانى الى وصف الطلول مسلَّطٌ   تَضيق ذراعى أن أجوز له أمرًا
فسمعاً أميرَ المؤمنينَ وطاعةً   وإن كنتَ قد جشّمتنى مَركباً وعرا

ومع هذا فقد كان الشاعر يحتال لنعتها ، ثم كان لا يعدم فى مجلس الشراب بعضَ التعزية عنها ، فثمة — على الأقل — الساقى المليح الغرير، إذا هو طاف بالخمر فلم يشربها من يديه ، شربها لَذيذة مسكرة من سحر عينيه :

أعاذلَ ، أعتبتُ الإمام وأعتبا   وأعربتُ عما فى الضمير وأعربا
وقلتُ لساقينا «أجزْها» فلم يكن   ليأبى أميرُ المؤمنين وأشربا
فجوّزها عَنّى سلافًا ترَى لهـا   إلى الأفقِ الأعلى شعاعًا مطنّبا
إذا عبّ فيها شاربُ القوم خِلتَهُ   يُقبِّلُ فى داجٍ من الليل كوكبا

يدور بهـا ساقٍ أغنّ ترَى له على مستدار الأذن صُدْغا مُعَقْرَبا
سَقَامٍ ومنّانِي بعينيه مُنيةً فـكانَتْ على قلبي ألذَّ وأطيبا

وكان شاعِرُنا مِسْرَافًا مِضْياعًا لا تحتوى يده على عطاء مهما جلّ حتى يتلفه على الخمر والندمان . ولقد حُمل ماحمل إليه أولاً وآخراً من جوائز ممدوحيه من الملوك والأمراء والوزراء وأرباب الدولة ، وترادف ما ترادف عليه من صِلات محبّي منادمته من السراة وأهل النعمة ، ولـكنه لم يدّخر من ذلك كله شيئا . وياليته وقف فى غرامه بالخمر واستهتاره بها عند إتلاف ما لديه فيها ، بل صار يزرى على من لا يفعل فِعْلَه من عشّاقها وخاطبيها :

ياقهوةً حُرّمت إلا على رجلٍ أثْرَى فأتلف فيها المـال والنشبا

فلا غرو، وقد نزفت الخمرُ ما عنده من مال، أن تشتدّ به الحاجةُ ويعانى جهدَ الحال ، لا سيا والخليفةُ غيرُ مقبل عليه كما كان . فهو يتوجه إلى آل الفضل بن الربيع بالسؤال بعد السؤال يستمنحهم ويستدرّ عطاءهم فيبطئون عنه . ويشكو الشاعر من خُلف الوعد وكثرة المطل، فيثقل عتابُه على نفوسهم ويُلْقَى فى الحبس . فيكتب الشاعر الى الفضل فى حبسه معتذراً إليه ذاكراً برّه طالبًا عفوه :

أبا العباس ، ما ظنى بشكرى ـ إذا ما كنت تعفو ـ بالذميم
وكنتَ أبًا، سِوَى أنْ لم تَلِدْنى ـ رحيماً أو أبرَّ من الرحيم
لئن أصبحتُ ذا جُرْمٍ عظيم لقد أصبحتَ ذَا عفوٍ كريم

ويتشفع بجعفر أخى الفضل قائلاً :

فلا تجحدوا بى ودَّ عشرين حِجّةً ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

وفيما يرويه الرواةُ من هـذه الأخبار أن أبا نواس صار الى العباس بن الربيع فى حاجة فلم يقضها له ، فخرج من عنده وهو يقول :

لَعَمْرُكَ ما (العبّاس) من ولد (الفضل) فيُرْجَى لعُرْفٍ أو يَغار على بَذْلِ
فتًى كلّمـــــا ناديتَه لملمّةٍ دَعَوْتَ مثالاً لا يُمِرُّ ولا يُحْلِي

فبلغه ذلك فشكاه لأبيه ، فأمر بكر بن المعتمر ، فأخذه وضربه وحبسه وقيّده وأسلمه الى سجّانٍ فظٍّ غليظٍ كان على المطبق اسمه « سعيد » فضيّق عليه وآذاه . فـكتب الشاعر السجين رقعة وأنفذها الى بكرٍ فيها :

وُقيتَ بى الردى ! زِدْنى قيُودَا وثَنِّ علىَّ سوطًا أو عمودا
ووكّلْ بى وبالأبواب دونى من الرقباء شيطانًا مَريدا
وأَعْفِ مسامعى من صوتِ رجسٍ ثقيلٍ شخصُه يدعى « سعيدا »
فقد ترَكَ الحديدَ علىَّ ريشًا وأَوْقَرَ بغضُه قلبى حديدا

فضحك بكرٌ من الأبيات ، ووقف الفضلَ عليها ، فأمر بإطلاقه فخرج وهو يقول :

يافضلُ قد أوسعتنى عِظةً ما بعدها غَلَطٌ ولا سهوُ

ولمـــا كانت الفرصة مؤاتيةً لـكل مضطغنٍ على أبى نواس ، موتورٍ بهجائه له ، أن يسعى به لدى السلطان ويرميــه بالحق أو بالباطل بإحدى موجبات الحدود ، فقد كثُرما كان يُرفع الى الأمين من الاتهامات ، ينسبون فيها الزندقةَ والـكفر الى الشاعر ، حتى صحّ عزمُه على قتله ، وجعل أمر ذلك

الى وزيره الفضل بن الربيع وكان واجداً عليه . فأتى بالشاعر وقال له : « رُفع إلى أميرالمؤمنين أنك زنديق ». فجعل يبرأ من ذلك ، ويحلف . وجعل الفضلُ يكرّر عليه ، ثم أعاده الى الحبس . وبقى أبو نواس فى المطبق دهراً وهو يترقّب الموت بين لحظة وأخرى، وقد تخلى عنه أصدقاؤه وثقاته ، وذلك حيث يقول :

أخلاّئى أذمّكم إليكم ... وكنت بمدحكم قَمِنًا خليقا
إذا استبطأتكم عنّفتمونى ... وقلتمْ إنّ فيه لذاك ضيقا
فأقسمُ لو تكونون الأسارى ... وكنت أنا المخلَّى والطليقا
إذاً لجهدتُ فوق الجهد حتى ... أطيقَ خلاصكم أوْلا أطيقا
فلا ـ والله ـ أَذْخركم هجاءً ... وشتمًا ـ ما بقيتُ ـ ولا عقوقا

وأخيراً كلّم الفضلُ الخليفةَ فيه ، فأطلق سبيلَه . فخرج وهو لا يصدّق أنه قد أُطلق، ومضى الى أهله يقول :

أهلى ، أتيتكمُ من القَبْرِ ... والناسُ محتبَسُون للحشْرِ
لولا أبو العباس ما نظرتْ ... عينى الى ولدٍ ولا وَفْرِ

وكتب الى الفضل :

ما من يدٍ فى الناسِ واحدةٍ ... كيدٍ أبو العباسِ أولاها
نام الثّقاتُ على مضاجعهم، ... وسَرَى الى نفسى فأحياها
قد كنتُ خِفْتُكَ ، ثم أمّننى ... ـ من أن أخافك ـ خوفُكَ الله
فعفوتَ عنى عفوَ مقتدرٍ ... وَجَبَتْ له نِقَمٌ فألغاها

وكانت جيوش طاهر المأمونيـة قد تقدّمت ونزلت حلوان ، وذلك على خمسة أيام من بغداد مدينة السلام . فاضطربت النـاسُ من زيادة أمره ، وادبارِ أصحاب الأمين وهزيمتهم فى كل حال . وأيقنت القلوبُ بغلبة المأمون ، فسُقِط فى يدى الفضل بن الربيع وأصحابه . ورجع الخليفةُ إلى قوّاده وبطانته يجمّعهم ويشاورهم ويكرر عليهم « أحْضِرونى غناءكم كما أحْضَرَت خراسانُ عبدَالله غَناءها » ، ويستحثّ فيهم قيامَ رجل مثلِ طاهرٍ قائد خصمه ، ويقول فيه : « أما والله ، لقد حُدِّثتُ بأحاديث الأمم السالفة وقرأتُ كتبَ حروبها وقصصَ من أقام دولها ، فما رأيتُ فى ذلك كلّه حديثاً لرجل منهم كهذا الرجل فى إقدامه وسياسته . وقد قصد إلىّ واجترأ علىّ ، فهاتوا اليومَ ما عندكم » . ولـكن جيوشَ محمدٍ ما برحت تنهزم بين يدىْ طاهر ولم تقم لها قائمة .

وأراد بعضُ الأمراء أنْ يستجيشَ للأمين جُنْدًا من الشام والجزيرة ممن أدّبتهم الشدائد وضرّستهم الحروب . فأبى سوءُ حظ الأمين إلاّ أن تقوم فتنةٌ فيهم بين الأبناء الجزَريين وأهل الشام الزواقيلُ . فانفضّ أهلُ الشام إلى بلادهم . ونادى قائد الأبناء الحسينُ بن على بن ماهان فى عسكره بالرحيل قاصداً بغداد ، فلما وصلها خلع الأمين فى ١١ رجب سنة ١٩٦ وحبسه وأعلن البيعة للمأمون . ولـكن كبـار الأبناء ثاروا على قائدهم وأسروه ، وأطلقوا الأمين ، وأقعدوه فى مجلس الخلافة .

وبينما كانت الأمور فى بغداد على هذه الحال من الاضطراب والفساد ، كان أمرِ المأمون على غاية ما يكون من النظام وإحكام التدبير . وقد أرسل

من قواده هرثمة بن أعين فتسلم من طاهر بن الحسين ما غلب عليه من الكور والمدن بشرقىّ بغداد ، وتحوّل طاهر إلى الأهواز والبصرة فى غربيّها ، ليكون الهجوم على بغداد من جهتين .

ولم تلبث أن اجتمعت الجيوش المأمونية حول بغداد، فحوصرت من عدة جهات ، وقُطعت عنها الأزواد والتجارة ، ونُصبت عليها المنجنيقات والعرّادات وصارت المدينةُ تُرمى فى كل وقت بالحجارة . فكَثُر الهدم والتحريق ، وخربت الديار ، وعَفَتْ الآثار ، وانتُهبت الأموال وغلت الأسعار . و بلغت الشدة بالناس كلّ مبلغ . وانفضّ عن الخليفة المنكود الحظ طُلَّابُ الجاه وأرباب المراتب من خاصته، والتجار ، وأصحاب الأموال والوَدائع والذخائر. والعجيب أن الذين بقوا على الولاء وصمدوا للدفاع خَلْقٌ من السوقة والعيّارين وأهل السجون . وكانوا على مداخل المدينـة يقاتلون نصف عراة ، فى أوساطهم التبابين والمآزر ، وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص يسمونها الخوذ ، ودرقًا من الخوص والبوارى قد قُيّرت وحُشيت بالحصى والرمل . وكان على كل عشرةٍ منهم عريفٌ ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيبٌ ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قوّادٍ أمير . ولقـد ارتضى بعضُهـم أن يكون مركبًا للرؤساء يركبونهم بالمقاود واللّجم والمذابّ .وعلى هذه الحال كان يتقدم الرؤساء منهـم والمقاتِلة الى الحرب مع أصحاب الخيول الفره والجواشن والدروع

والتجافيف والسواعد والدرق التُّبَّتِيَّة ، فهؤلاء عراة وهؤلاء بكامل العُدَّة ، فكان يُقتل منهم الخلقُ الكثير .

ولقد سجّل هذه الأحداثَ وقعةً وقعةً في قصائد عدة ، زميلُ أبي نواس ومُواطنُه البصريّ، صاحب الأخبار الكثيرة معه ، عمرو بن عبد الملك العنزى الورّاق ، وهو على مجونه قد اشتغل بهذه الخطوب واهتمّ لها .

وأما أبو نواس فإنه في وسط هذه الحروب والفتن لم يكن له همٌّ ، وقد شُغِل عنه أولو الأمر ، إلا أن يستأنف حياةَ الفجور والسكر . وإذا كان لم يفكر في خيانة الأمين والانحياز الى خصمه ، فإنه كذلك لم يخطر له أن يحمل سيفاً أو يعتقل رمحاً في القتال عنه . وإنما كان ميدانه مجلسَ اللهو ، وآلات حربه مقارعةَ الأقداح والترامى بالزهر ، وقد استبدل بهَيْعَة الوغى وسفك الدماء صوتَ المعازف وحمرةَ الخمر :

إذا عبّا أبو الهيجا ء للهيجاء فرسانا
وسارت رايةُ الموْت أمام الشيخ إعلانا
وشبّت حربُها واشتَعلتْ تُلهب نيرانا
جعلنا القوسَ أيدينا ونَبْلَ القوس سوسانا
وقدّمنا مكانَ الرمـ ـح والمِطْرد رَيْحانا
فعادت حَرْبُنا سِلْمًا وعُدْنا نحن خُلّانا
بفتيانٍ يَرَوْنَ القتـ ـلَ في اللذّة قُرْبانا
إذا ما ضربوا الطبلَ ضربنا نحن عيدانا

وأنشأنا كراديساً من الخيرىِّ ألوانا
وأحجارُ المجانيق لنا تفّاحُ لُبنانا
ومَنْشَا حَرْبِنا ساقٍ سَبَا خمراً فسقّانا
يحثّ الكاسَ حتى يلـ حق الآخرُ أُولانا
ترى هذاك مصروعًا وذا ينجرّ سكرانا
فهذى الحرب، لا حربٌ تغمّ الناس عدوانا
بهـا نقتلهم ، ثمّ بهـا ننشرُ قتلانا

وهذه مقابلة أخرى من مقابلاته بين الحربيْن :

أحسنُ من رَمْيٍ بعرّادةٍ ومِنْ قِذَافِ المنجنيقاتِ
مُسامرٌ فى مجلس حاضرٌ أمام أعوادٍ ونايات
وقينةٌ تشدو على صحبها تُعطيك أسباب اللذاذات
فذاك يُسْلى الهمّ لا معركٌ يرمى بأحجار المنيّاتِ

وإذا كان هذا حال صاحبنا ، فالأمر ليس رأيًا يرتئيه ومذهبًا فى التفكير يذهب إليه ، وإنما هو شىء فى أصل تكوينه وتركيب طباعه . وإليك عذره وهو لا شك أدرى بنفسه :

يا «بِشْرُ» مالى والسيفِ والحَرَبِ وإنّ نجمى لِلّهو والطربِ
فلا تثقْ بى فإننى رجلٌ أكُعُّ عنـدَ اللقاء والطلبِ
وإن رأيتُ الشُّراةَ قد طلعوا ألجمتُ مُهرى من جانب الذنَبِ

ولستُ أدرى ما الساعدان، ولا التر س ، وما بَيْضَةٌ من اللَّبَبِ
همّى إذا ما حروبهم غلبتْ أىُّ الطريقين لى إلى الهرَبِ
لو كان قصفٌ وشربُ صافيةٍ وجدتَنى ثَمَّ فارسَ العرَبِ

وقد روى إبراهيم الطبرى أنه كان فى أيام الفتنة جالساً على بابه، إذ مرَّ به أبو نواس وقال : « قُمْ حتى نأخذ من شأننا » فدخلا فجعلا يشربان . وأقبل الداخلُ بعد الآخر يدخل إليهما فيقول : « كان كذا وكان كذا » فأنشأ أبو نواس :

عنـدىَ للخمرة أسمـاء لهـا دواء ولهـا داء
يُصلحُها المـاء إذا صُفِقتْ وربمـا أفسدها المـاء
وقائلٍ كانت لهم قصةٌ فيهـا أحاديثٌ وأنبـاء
قلت له : « أىُّ امرئٍ جاهلٍ فيك عن الخيراتِ إبطاء
اشربْ ودعنا من أحاديثهم يصطلح الناس إذا شاءوا »

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين : المأمونية ، والمحمدية ، أربعة عشر شهراً . وكان القتال يشتد كل يوم عما قبله ، وصبر الفريقان جميعًا . وانقطعت الموارد بالأمين فى أرزاق الجند، فضرب الآنية من الذهب والفضة سرًّا وأعطى رجاله . ثم شغب عليه من لم يعطهم من قادته وجنـده وخذلوه ، واقتصرت حاميةُ المخلوع وجنده على العراة أصحاب خوذ الخوص ودرق البوارى ورماح القصب وأعـلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر . وكانوا فى حربهم كالشياطين، وقد اتخذوا تحت آباطهم المخالى فيها حجارةٌ وقطعُ آجُرٍّ يبتدرون

بها الفرسانَ ويصرعونهم عن أفراسهم . فصار القتل أعمّ فى أصحاب طاهر ، والغرق والحريق فى العراة أصحاب المخلوع . واشتدّ الأمر بالناس أى اشتداد وهم تحت وابل المنجنيقات والعرّادات ، ينتقل أهل السكك والدروب من موضع إلى موضع ، حتى ضاق أهل بغداد بها ، وصار أكثرهم يسخطون على الأمين ما جلب على الأمة بغدره وسوء رأيه . وكثر القتل فى الطرق والشوارع . يُنادى هذا « يا للمأمون » ، وهذا « يا للمخلوع » ، فيقتل بعضُهم بعضًا . وانتُهبت الدور ، وأُعملت النار ، وعظمت الحال . وكان الفوز الأكبر والفرح الأعظم لمن نجا بنفسه من رجلٍ وامرأةٍ ، وكبيرٍ وصغيرٍ بما يَسْلَمُ مَعَهُ، إلى عسكر طاهر فيأمن على دمه وماله . وشدّد طاهرٌ النكير وضيّق الخناق . وأقبل يقتطع من بغداد الشارعَ بعد الشارع ، فينحاز إليه مَن يصير فى حَيِّزه من أهل تلك الناحية ، ويعاونونه فى حربه . واشتد الأمر على محمد المخلوع وجَدَّ به . فنصح إليه من نصح بالتسليم . وألحّ عليه الصعاليك من أصحابه بالخروج من المدينة بالليل الى بلاد الجزيرة وديار ربيعة ، لاستنفار الرجال وجباية الأموال ، ثم العودة للقتال . فما زال به دعاة التردد والهزيمة حتى أسلموه الى يد عدوه القائد طاهر بن الحسين ورجاله ، فأخذته سيوفهم حتى قتلوه .

وهنا انقلب الكثيرون من مادحى الأمين فى أيام عزّه ، إلى القدح فيه والتشنيع به وتعديد مثالبه بعد موته ، يتقربون بذلك الى الغالب ويخطبون

ودَّه . ولكن أبا نواس لم يكن من هؤلاء ، بل كان صاحب الشعور الجميل كما يجمل بالشاعر أن يكون ، وكان مثالاً على الوفاء ، كما يشهد كلُّ بيتٍ من هذا الرثاء :

طوى الموتُ ما بينى و بين محمدٍ ... وليس لما تطوى المنية ناشرُ
فلا وَصْلَ ، إلا عبرةً تستديمُها ... أحاديثُ نفسٍ مالها الدهرَ ذاكر
لئن عَمِرَتْ دورٌ بمَنْ لا أَوَدُّه ... لقد عَمِرَتْ ممن أُحبُّ المقابر
وكنتُ عليه أحذرُ الموتَ وحدَه ... فلم يبقَ لى شىء عليه أحاذر

الخاتمة

عاش أبو نواس ماعاش « طالبَ لذة » . ولو كان ذلك الانصراف منه إلى إصابة اللذة والتهالك على مواقعتها من قبيل جنون الشباب وفورة الصبا ، لذهب ما به مع تقدّم السنّ وتجَاوُزِ هذا الطور من العمر . ولكنه ظلّ على حاله من الخلاعة والمجون إلى أن بلغ الخمسين وإلى ما بعد الخمسين . وإذا ذكرنا أنه كان ناعماً نحيل البدن تعوزهُ الضلاعةُ ومتانةُ التركيب منذ حداثته ثم أضفنا الى ذلك علوّ سنّه وكهولته ، لم نصدّق أن استهتارَه باللذات وانغماسَه فيها مما يُنسب إلى فيض القوة وغلبة الشهوة ، ولا سيما إذا تدبّرنا ما قيل من أنه لم يكن مجدوداً من النساء . فالأمر إذن لا يخلو من أن الرجل كان صاحب لذّةٍ من ناحيةِ مزاجه قبل كل شيء ، وأن فجوره كان فنيًّا ، أو ـ إذا شئنا اصطناع لغةِ الفلسفة ـ كان فجوراً بالقوة لا بالفعل ، أو بلفظ أدق كان بالقوة أكثر منه بالفعل . فهو ـ مهما يَقُلْ عن نفسه ـ لم يكن أقبحَ أهل الأرض عملاً ، وإن يكن من أقبحهم قولاً :

عَفٌّ ضميري ، هازلٌ لفظي ، وفي نظري عَرَامه

ولقد كان فى وسع أبى نواس أن يتستّر ويتكتّم ويستعمل التَقِيَّة والنفاق

كغيره ، ويُصيب فى السرّ والخفاء من اللهو وألوان اللذاذات ما يشاء . ومن المحقّق الثابت أن أهل زمانه لم يكونوا يختلفون عنـه كثيراً إلا فى تستّرهم ومجـاهرته ، وسِرّهم وعلانيته ، كما تنطق بذلك وصية شيخ البرامكة يحيي إلى ولده :

انْصَبْ نهاراً فى طِلاب العُـلا ... واصْبِرْ على فَقْدِ لقاءِ الحبيبْ
حتى إذا الليـلُ بدا مُقبلاً ... وغاب فيه عنكَ وجهُ الرَّقيب
فبادر الليـلَ بمـا تشتهى ... فإنما الليـلُ نهارُ الأريب
كم من فَتًى تحسبه ناسكاً ... يستقبلُ الليـلَ بأمرٍ عجيب
أَلْقَى عليه الليـلُ أستارَه ... فبات فى لهوٍ وعيشٍ خصيب
ولذّة الأحمقِ مكشوفةٌ ... يسعى بهـا كلُّ عدوٍّ مريب

ولـكن أبا نواس كان لا يعرف اللذة إلا فى المجاهرة بها ، وإعلام القاصى والدانى بشيْنها ، مع المبالغة والتهويل فى أمرها ، كأنمـا اللذّة ليست هى التى تَعنيه ، وإنما استهتاره بهـا هو المعنى المقصود . وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن هذه الآفة تكون أحياناً من علامات مُرَكّب النقص فى الضعاف القاصرين من أهل الإباحة المستهترين :

غدوتُ إلى اللذات منهتك السّتْرِ ... وأفضتْ بناتُ السرّ منى إلى الجهر
وهان علىّ الناسُ فيما أرومه ... بما جئتُ فاستَغْنَيْتُ عن طاب العذر

ألا فاسقنى خمراً ، وقل لى هى الخمر ... ولا تسقنى سرًّا إذا أمكن الجهرُ
وَبُحْ باسم مَنْ أهوى ودعنى من الكُنَى ... فلا خير فى اللذاتِ من دونها ستر

أطيب اللذّات ما كان جهاراً بافتضاحِ

والقارئ لمجون أبي نواس ينتهى لا محالة إلى أن الشاعر يعترف على نفسه بأكثر مما يقترف، ذاهباً مع خياله المريض إلى أبعد ما تذهب إليه نزغات الشهوة، مستغرقاً فى تصور ما ليست له عليه قدرة. وهو بهذا الخلط بين الوهم والحقيقة يتعوّض من عجزه فيما بينه و بين نفسه، ويُرضى غروره بما يزعمه عند مَن لفّه من أبناء عصره . وأيًّا ما كان الحال ، فقد مضى صاحبنا فى غوايته ، سادراً فى جهالته ، مستكثراً من الفضائح ، يضع لهوه ولذّته فوق كل اعتبار ، ولا يبالى ما يجب لِسِنِّه من الوقار .

يقولون فى الشيب الوقارُ لأهله وشيبى بحمد الله غير وقارِ

وكان كلما أدبر شبابُه وتداعى عنفوانُه وتقدّم به العمر ، تركّزت كلُّ شهوته فى الخمر ، فاستهلك فى شربها والعكوف عليها :

لم يبق لى فى غيرها لذةٌ كَرْخِيَّةٌ فى الكأس كالنارِ

قالوا : «شَمِطْتَ» فقلتُ : «ما شمطتْ يدى

عن أن تحثّ الى فمى بالكاس »

فالشيخ متعلقٌ بها ، مصرٌّ عليها ، غير آسٍ على شىء يفوته غيرها . فهى شغلُه فى الحياة وطَلِبَتُه ، وهى ما بعد الحياة همُّه وموضع تفكيره وموضوع وصيته :

خليلىَّ بالله لا تحفرا لىَ القبرَ إلا بقُطْرُبُّلِ

خِلالَ المعاصرِ بين الكُروم ولا تُدْنيانى من السُّنْبُلِ
لعلِّىَ أَسْمَعُ فى حفرتى إذا عُصِرَتْ ضجَّةَ الأرجل

على أن للشاعر مع هذا أبياتاً فى الزهد لا نحسبه نظمها منافسةً لأبى العتاهية أو غير أبى العتاهية فى هذا الباب من الشعر، وإظهاراً لاقتداره فى كل غرض من أغراض النظم. وإنما الذى نراه، أنه كان فى بعض هذه الزهديّات صادقاً كل الصدق فى شعوره، وأن شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من المنساقين فى حياة الفسوق والشرب، تنتابهم فى الحين بعد الحين فتراتٌ يذكرون فيها الله وموقفَ الحساب وما ينتظرهم من العقاب، وقد تبتدر عبراتُهم وتتصعّد زفراتهم، ولكنهم ماضون فى ضلالهم لا يستطيعون عنه صبراً :

بكيتُ، وما أبكى على دِمَنٍ قَفْرِ وما بى من عشقٍ فأبكى على الهجرِ
ولكنْ حديثٌ جاءنا عن نبيّنا فذاك الذى أجرى دموعى على النحر
بتحريم شرب الخمر والنهى جاءنا فلما نهى عنها بكيتُ على الخمر
فأشربُها صِرْفاً وأعلم أننى أُعزَّر فيها بالثمانين فى ظهرى

فموقف هذا المدمن السكّير فى خمره، موقف المؤمن المغلوب على أمره، يشربها وهو عارفٌ حق المعرفة ما يتعرض له من أجلها فى الدنيا وفى الآخرة :

الراحُ شىءٌ عجيبٌ أنتَ شاربها فاشربْ وإن حمّلتك الراحُ أوزارا
يامَنْ يلوم على حمراءَ صافيةٍ صِرْ فى الجنان ودَعْنى أسكن النارا

والقارئُ لزهدياته يراه دائم التفكير فى الموت، يتمثل حكمه الجارى على

الأجيال والأشياء من قبلُ ومن بعدْ بغير انتهاء ، فيرى كلَّ جهدٍ الى ضياع ما دامت الغاية الفناء .

وتسلُّطُ فكرة الموت والشعورُ بفناء كل شيء ووشك زواله ، من الأمور التي قد تؤدى الى الزهد فى نعيم هذه الحياة العاجلة، كما قد تؤدى الى ضد ذلك تبعاً لمزاج الشخص وما رُكّب عليه طباعُه. ولقد كان من شعور شاعرنا بقِصَرِ المدة التى للأحياء على هذه الأرض ، وتيقّظِ حسّه للأيام تعبر به سراعا ، والعمر ينطوى بساطُه تحت قدميه ، وعِقْدِ الحياة ينفرط بين يديه ، أنْ حَرِص على مبادرة اللذات والتمتع بها قبل الفوات :

رأيتُ الليالى مرصَداتٍ لمدّتى فبادرتُ لَذّاتى مبادرةَ الدهر

ولعله مما تجب ملاحظته ، أن أبا نواس لا يبرح حتى فى زهدياته تغلب عليه نزعتُه الحسية ، فإذا هو ذكر الموت والقبر ، اقترن ذكرها بما يتمثّله تحت التراب من الوجوه الوِضاء ذات السّمْت والرواء .

أيا رُبَّ وجهٍ فى التراب عتيقٍ ويا ربَّ حسنٍ فى التراب رقيقِ
وما الحىّ إلا هالكٌ وابن هالكٍ وذو نسبٍ فى الهالكين عريق

وهو إذا زجر نفسَه عن الهوى ، ووعظها بالشيب ، واستحثها على العمل الصالح لتفوز مع أهل الطاعة والتقوى بجنة المأوى ، لم يذكر من جنة المتقين إلا نساءها من الحور العين :

أيّةُ نار قَدَحَ القادحُ وأي جِدٍّ بلغ المازحُ

لله درُّ الشيبِ من واعظٍ وناصحٍ لو حذّر الناصحُ
يأبَى الفتى إلا اتّباعَ الهوى ومنهجُ الحق له واضح
فاسْمُ بعينيْك إلى نسوةٍ مهورهنّ العملُ الصالح
لايجتلى الحوراءَ من خدرها إلا امرؤٌ ميزانُه راجح
مَن اتقى اللّهَ فذاكَ الذى سيق إليه المتجرُ الرابح

ومن كان هذا مزاجَه وهذه إرادة طباعه ، فكيف يُرجَى له أن يزهد ويتبتّل ، ولا سيما إذا كان حوله من الغوايات والمغريات مثلُ ما فى بغداد وأرباضها فى ذلك العصر ، مما لا يحيط به وصفٌ ولا يدخل تحت حصر :

قالوا « تَنَسّكْ بعد الحج » قلتُ لهم « أرى ، وأرجو ، وأخشى طيزناباذا
أخشى قُضَيِّبَ كَرْمٍ أن ينازعنى رأسَ القِطار وإن أسرعتُ إغذاذا
ما أبعدَ النسك من قلبٍ تقسّمه قُطْرُبُلٌ ، فقُرَى بُنَّى ، فكلواذا
فإن سلمتُ — وما قلبى على ثقةٍ من السلامة — لم أسلَمْ ببغداذا

وإلى جانب هذه الغوايات الحسّية غوايةٌ أدبيةٌ ، إن جازت هذه التسميةُ على حرص هذا الماجن على ما شاع له من شهرة وصيتٍ فى القبائح والمنكرات . لقيه أبو العتاهية فى المسجد وقال له : « أما آن لك أن ترعوى ؟ أما آن لك أن تنزجر وقد بلغتَ من السن والعلم ما فى دونه يتّعظ العاقل اللبيب ، وأنت تعاقر بنتَ الحان ، وتصبو صبوة الشبان! » . فرفع أبو نواس رأسه إليه وهو يقول :

أتُرانى يا عَتَاهِى   تاركاً تلك الملاهى !
أتُرانى مُفسداً بالنسـ   ـك بين الناس جاهى !

والذى يقرأ عن أبى نواس ما رَكِبَ من المحارم وما بلغ من مجاهرته بالمعاصى ، ويقرأ له شعرَه فى المجون وقبيحَ خروجه أحياناً على حرمة الدين ، ويرى كيف كان يتعرّض للقتل بجهده ، وما جرّه على نفسه من التعزير والضرب والحبس فى المطبق ، وهو لا يُقْصِر عن باطله ولا ينزع عن جهله ، قد يتصور أنه منكرٌ من الملاحدة المعطِّلة افتتن بالنظر والفكر ، وذهب مذهب القائلين بالدهر ، أو هو ثائرٌ ماردٌ من العُصاة العتاة على غرار إبليس ، يجترئ اجتراءه ويقف من التحدى موقفه . ولكن حقيقة الأمر لمن يتقصّى أشعاره وأخباره بخلاف ذلك وعلى الضد منه . فالرجل مؤمنٌ مصدّقٌ بقلبه . ولا نقول إنه لم يتشكك ، فقد عاش فى عصرٍ من عصور الشك . ولكنه شكٌّ من النوع الذى قد يَعْرِض للمؤمن فلا يُخرجه إلى الإنكار ، ثم إن معظمه لا يعدو ما يجرى عليه ظرفاء كلّ عصرٍ من مخالفة العامة وإظهار الخروج على العرف ، يضاف إليه ذهابُه مع الخلاعة والمجون إلى غير حد . وقد جاء على لسان أصحابه ممن كانوا يعذلونه ويعيبون عليه مجونه رواياتٌ عدةٌ كلّها شاهد على إيمان الرجل وصحة اعتقاده . وكان يقول إذا أطالوا توبيخَه وتخويفه : « والله إنى لأعلم ما تقولون ، ولكن المجون يُفرط علىّ ، وأرجو أن أتوب فيرحمنى الله عز وجل » .

وظاهر من هـذا أن أبا نواس لم يرتكب ما ارتكب من المعاصى وهو فارغ البال من خشية الله ، ولكنه مع ذلك لم يكن بالذى يستطيع تركها والاقلاعَ عنها التماساً لرضاه . وهى حالٌ من التناقض توقع فى الحيرة ولا يتبيّن معها وجهُ الطريق . على أن العصر ـ بما كان شائعاً فيه من مذاهب الجدل والكلام ـ لم يَعْدَم ما يغالط به ويستند إليه ليمضى فى حياة اللذة التى كان عليها ، من غير حاجة إلى التكذيب بالدين أو اليأس من الجنة . ذلك هو مذهب المرجئة القائل بأن الإيمان يكفى فيه التصديق بالقلب . فليست أعمال الإنسان ركناً من أركان الإيمان . والمؤمن الذى يرتكب الكبيرة لا يُعدّ كافراً ، بل يقال عليه فاسقٌ فى كذا من غير إطلاق ، وإذ كان غير معدودٍ فى الكفار فهو لا يخلد فى النار . ثم إن الله لا يتخلّفُ فى الثواب وَعْدُه ، لأن الثواب فضلٌ فيفِى الله به لأن فى خُلفه نقصاً . وأما وعيدُه بالعقاب فقد يتخلّف ، لأن العقاب عدلٌ ولله أن يتصرف فيه كما يشاء ، وليس فى الخلف فى الوعيد نقص . وفى ذلك يقول أبو نواس :

لا بأعمالنا نُطيق خلاصاً يومَ تبدو السِّماتُ فوقَ الجباهِ
غيرَ أنّا ـ على الإساءة والتفريطِ ـ نرجو لحسنِ عفوِ الإله

ولقد عارض الخوارجُ والمعتزلةُ هـذا الرأىَ أشدَّ المعارضة . ولعلّ لهم فى ذلك العذر ، لا كراهةً لما ينطوى عليه من التسامح ، بل لما قد يؤدى إليه من تهوين أمر المعاصى وخلع الطاعات ، عند العامة وأصحاب الخلاعات :

غادِ المدامَ وإن كانت محرّمةً فللكبائر عند الله غفرانُ

وقد ختم أبو نواس إحدى قصائده فى وصف الخمر ، وطروقه للخمارات ، معرِّضاً ببعض أصحابه من فلاسفة المعتزلة ، وهو إبراهيم النظّام ، لمعارضته مثلهم لهذا المذهب فى العفو عن مرتكب الكبيرة :

فقُلْ لمن يدّعى فى العلم فلسفةً : « حفظتَ شيئًا وغابتْ عنك أشياء
لاتحْظرِ العفوَ إن كنت امرأً حَرِجًا فإن حَظْرَكَهُ بالدين إزراء »

من أجل ذلك كان هذا العصر العباسى بما فيه من اللهو ، تروج فيه مذاهبُ الإرجاء وخاصةً فلسفة العفو[1] . ولقد أكثر المجان الخلعاء من الشعراء القول فى ذلك ، وكادوا يتواصون بالاستكثار من المعاصى ليظهر عفو الله أجلّ وأشمل :

تَكَثَّرْ ما استطعتَ من الخطايا فإنك بالغٌ ربًّا غفورا
ستبصر ـ إن قَدِمتَ عليه ـ عفواً ، وتَلْقَى سيّداً مَلِكا كبيرا
تعضّ ندامةً كفيكَ مما تركتَ ـ مخافةَ النار ـ السُّرورا

ولا جَرَم يكون أشدُّ القوم تورّطًا فى الآثام والمعاصى ، أكثرَهم توجهًا إلى الله ، وألهجهم بذكر عفو الله ، وأن عفوه وَسِعَ كلَّ شىء ، فما من ذنبٍ مهما عَظُم إلا وعفوه أعظم . ولا جَرَم تكون أشعار أبى نواس فى ذلك فوق الجميع وفرةً وحرارةَ لهجة :

يا كبيرَ الذنب ، عفو الله من ذنبك أكبرْ
ليس للإنسان إلا ما قَضَى اللهُ وقدَّرْ

---

(١) ضحى الاسلام

ليس للمخلوق تدبـــيرٌ بل اللهُ المـــدبِّرْ

أعظم الأشياء فى أصـ غرِ عفو الله يصغُر

ولقد أثرت الحياةُ التى عاشها أبو نواس فى صحتـه ، وفعلتْ فِعْلَها فى بِنْيته ، فدبّ الوهنُ إلى قوته وغاض معين شِرَّته، ورَثَّ بُرْدُ شبابه وذَوَى عودُه ، و بادرته الشيخوخة قبل الأوان، وأسرع إليه المشيب ولات حين مشيب:

شيَّب رأسى الهوى على صِغَرِ   وليس شيبى من باطن الـكِبَرِ

و إذا عَدَدْتُ سِنِىَّ كَمْ هِىَ ، لم أجِدْ   للشيب عـذراً فى النزول براسى

ولم يلبث أبو نواس أن ضعف جسمُه عن المقاومة ، على ما به من الحيوية والمراح . فجعلت تترادف عليـه الأسقام والأوصابُ ، وهو يغالبها بالشراب ويحمل عليها باللهو ، حتى اشتدت به العلة وأثقله المرضُ ومنعه عن الحركة . فلزم المسكين بيتَه ، وقضى أياماً مثبتاً فى فراشه لا يبرحه ، عميداً لا يقدر على الجلوس حتى يُعْمَد من جوانبه بالوسائد . وكان أصدقاؤه يعودونه فى مرضه ، فيجدونه كلَّ يومٍ أسوأ حالا من اليوم الذى قبـله ، منقوف الوجه ، متغيّر اللون، قد برى السقمُ جسمه، وأذهب لحمَه وأوهن عظمه . وهو مع ذلك صاحى الذهن متنبّه الحس، لا ينى ينظم الشعرَ ويغمغم به فى وصف حاله، ويكتب به إلى أصحابه :

شِعرُ حىٍّ أتاك فى لفظِ مَيْتٍ   صار بين الحياة والموت وَقْفا

لو تأملتنى وأبصرتَ وجهى   لم تجد من مثالِ رسمىَ حرفا
نَفَسٌ خافتٌ ، وجسمٌ نحيلٌ   أرمضتهُ الأسقام حتى تعفّى

ولم يلبث الحسن بن هانئ الشاعر الماجن الخليع أن طَفِئَ وعاجلته المنية . وكانت وفاته فى سنة تسع وتسعين ومائة ، وعمره تسع وخمسون سنة . ودفن فى مقابر الشونيزى فى التل المعروف بتل اليهود، على شاطئ نهر عيسى ببغداد . وقد كتب صديقه ورفيق صباه الحسين بن الضحاك على قبره :

نازعَنيكَ الزمانُ يا «حَسَنُ»   فخاب سهمى وأفلح الزمنُ
ليتك إذ لم تكن بقيتَ لنا   لم تبق روحٌ يحوطها بدن

ومما يروى عنه فى مرض موته أنه التفتَ ذات مرةٍ إلى عُوّاده فقال: « لا تشربوا الخمر صِرْفاً ، فإنى شربتُها صِرْفاً فأحرقت كبدى » . وكان لا يكفّ فى كل مرةٍ ــ مع ضعفه وخفوت صوته ــ عن إنشادهم شعراً له بعد شعر، يُظهر فيه التوبَةَ ، ويطلب من الله الصفح والمغفرة :

دبّ فىَّ الفناء سُفْلًا وعُلْوَا   وأرانى أموتُ عُضْواً فعُضْوَا
ذهبتْ شِرّتى بجِدَّةِ نفْسى ،   وتذكرتُ طاعةَ الله نِضْوا
ليس من ساعةٍ مضت بى إلا   نقصَتْنى بمرِّها بىَ جُزْوَا
لهفَ نفسى على ليالٍ وأيّا   مٍ سلكتُهُنَّ لعباً ولهوا
قد أسأنا كلَّ الإساءة ــ يار   بِّ ــ فصفحاً عنا إلٰهى وعفوا

وقد مضى بعضُ أصدقائه إلى بيته عقب وفاته ودَفْنه ، فدخل إلى مرقده وثيابُه لم تُحرَّكْ بعدُ ، فإذا كلُّ ما خلفه قِمَطْرٌ فيه دفاتر وجذاذاتُ قراطيس فيها نسخُ أشعارٍ وغريب ألفاظٍ ، ونَرْدٌ وشطرنجٌ وعودٌ وطنبور . فرَفَعَ وسادتَه ، فإذا برقعةٍ مكتوبٍ فيها :

يا ربِّ ، إن عظمتْ ذنوبيَ كثرةً　　فلقد علمتُ بأنَّ عفوَكَ أعظمُ

ما لى إليك وسيلةٌ إلا الرجا　　وجميلُ عفوك ، ثم أنى مسلمُ

ثبت المراجع

الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى
وفيات الأعيان لابن خلكان
أخبار أبى نواس لابن منظور
ديوان أبى نواس لجامعه حمزة الاصبهانى
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى
معجم الأدباء لياقوت الحموى
نزهة الالبا لابن الأنبارى
المعارف لابن قتيبة
الفهرست لابن النديم
العقد الفريد لابن عبد ربه
نهاية الأرب للنويرى
البيان والتبيين والحيوان للجاحظ
الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم
الملل والنحل للشهرستانى .
الوزراء والكتاب للجهشيارى
تاريخ الأمم والملوك للطبرى
الكامل لابن الأثير
الفخرى لابن الطقطقى
مروج الذهب للمسعودى
تاريخ بغداد للخطيب البغدادى
تاريخ دمشق لابن عساكر
الولاة والقضاة للكندى
معجم البلدان لياقوت الحموى
البلدان لليعقوبى
حديث الأربعاء للدكتور طه حسين بك
ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين بك
حضارة الاسلام للأستاذ نخلة المدوّر
الديارات النصرانية للاستاذ خبيب زيات
تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان
مجلة الهلال (العدد الخاص بأبى نواس)
دائرة المعارف الإسلامية الخ . . .

دائرة المعارف الإسلامية

أوفى مرجع عن الحضارة الإسلامية

تصدرها

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

احمد الشنتناوى . عبد الحميد يونس

ابراهيم زكى خورشيد . حافظ جلال

تم إصدار المجلدات الخمسة الأولى

وصدر العدد السادس من المجلد السادس

الاشتراك السنوى عن ستة أعداد خمسون قرشاً

ادارة اللجنة :

١٤ شارع حسن الأكبر مصر . ت ٤١٣٧٥

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

١ — عمرو بن العاص	للأستاذ عباس محمود العقاد	صدر في مارس سنة ١٩٤٤	
٢ — منصور الأندلس	« علي أدهم	« « ابريل	«
٣ — بشار بن برد	« ابرهيم عبد القادر المازني	« « مايو	«
٤ — المعز لدين الله	« ابراهيم جلال بك	« « يونيه	«
٥ — محمد عبده	للدكتور عثمان أمين	« « يوليه	«
٦ — أبو نواس	للأستاذ عبد الرحمن صدقي	« « أغسطس	«

الكتاب السابع

محمد على الكبير للأستاذ شفيق غربال

يصدر في سبتمبر سنة ١٩٤٤


Bibliotheca Alexandrina
0413439